

البعث

مختارات قصصية



حسن م. يوسف

الكتاب الشهري
التاسع والعشرون
٢٠١٠

الهيئة العامة السورية للكتاب دار البعث

مختارات قصصية

حسن . م . يوسف

الكتاب الشهري التاسع والعشرون - ٢٠١٠

رئيس التحرير

المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب

محمود عبد الواحد

العريف غضبان[1]

[1] من مجموعة بنفس العنوان صدرت لأول مرة عن وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٨

١ ـ إفادات

الإفادة الأولى:

(أنا لا أخاف أحداً إلا اللّه! فعندما دفعني، تركت الباص لحال سبيله وجدلتُ رقبته على قبضتي حتى تدحرجت عيناه على خديه. حاول صفعي ابن الديوث! ناولته لكزة في خاصرته.. انسدح كالفطيسة.. عندها حنّ قلبي عليه، لكنّ ابن العاطلة هجم عليّ مرة أخرى وكأنه لم يعرف من أنا، أي واللّه، تبلّت الشارع بدمه ثم أخذته إلى الشعبة وبقيت أوسع مداركه حتى مطلع الفجر).

❖العريف غضبان

الإفادة الرابعة:

(دعوهما.. تاجر وعاهرة سيتفقان في النهاية).

❖العريف غضبان

الإفادة السابعة:

(كان أبي يضربني دائماً.. مرةً طوق عنقي بالحبل وقادني كالبهيمة إلى الحقل.. لهذا أحببتُ هذا العمل وهذا المسدس. لكم أتمتع برؤية هؤلاء الأجلاف يرتعدون أمامي كالفئران).

❖العريف غضبان

الإفادة التاسعة:

(أنا أحسدهم! صحيح أن الواحد منهم يمشي مع كل امرأة تفلح البدن، ولكنهم مجرد حشرات كافرة بنظري. لقد قال لي المساعد أبو صطيف أنهم يفرغون جثث الأطفال من مراحيض الجامعة بالبراميل، سترك يا رب!)

❖العريف غضبان

٢ ـ قصة

خفَتَ لهاثُ الشارع وتعالى انعزاف المطر على الإسفلت اللماع وهجم فرس الليل الشتوي على أزقة المدينة المتعانقة فازدادت انكماشاً وتظاهرت بأنها تحلم.

ساعات طويلة مضت والعريف غضبان ما يزال متشبثاً بطاولته في حانة (الأصدقاء) يكرع أقداح العرق المُشنَّن وينتظر شخصاً ما يشاركه منضدته، أي شخص.. لكن أحداً لم يبد رغبته بالانضمام إليه على الرغم من الازدحام الشديد خلال ساعات المساء الأولى.

صرخ:

"بطحة ثانية يا ريِّس".

لم يجبه أحد. كرعَ كأس العرق دفعة واحدة:

(الأوغاد، جميعهم يعرفونني. أقرأ هذا في عيونهم.. في أصواتهم الهامسة اللعينة. لماذا يحدجونني بهذه النظرات الخائفة؟ ما الذي يخيفهم؟ لابد أنهم يشعرون بالمسرة لأن وردة هجرتني. لسوف أعرف من أخبرها بأمري وعندها...)

أجال نظرة بين الزبائن القلة المنهمكين بمناقشاتهم السرية على الطاولات الأخرى. ارتطمت عيناه بعيني واحد منهم.. هرب الرجل بعينيه.. زمجر غضبان:

(يعتقدون أني حيوان. أجل إنهم يعتقدون ذلك. لسوف أريهم!)

تناول مسدسه من تحت سترته. صوبه إلى صلعة صاحب الحانة، أطلق.. أحس بيده تصبح ثقيلة كجبل صغير، تحول مسدسه إلى بندقية رشاشة. جأر:

(عا..ا..ا..ا..ا..ا..ا..)

ضغط على الزناد مرة أخرى. امتلأ الجو بالضباب اللازوردي الشفيف وتدفق فوق الأرض القذرة نهر دم أزرق.

انطلقت ضحكة صاخبة عن الطاولة اليمنى، رفع غضبان رأسه المثقل. صرخ من جديد:

- "قلنا بطحة ثانية!"

تهادى إليه صوت صاحب الحانة المتعب ممزوجاً بهمسات الزبائن:

- "آسفون يا أستاذ. سنغلق بعد لحظات."

خبزَ كأس العرق الفارغ على الطاولة، أحس بخلاياه تسقط على الكرسي. ترنح قليلاً. تحسس ماسورة مسدسه كما لو أنه يطلب العون. قفز وجه وردة إلى مخيلته:

- "أنا مستعدة أن أتبع قلبي إلى آخر الدنيا.. صحيح نحن فقيران، لكن صديقتنا الحياة غنية وستساعدنا".

–   "إذا كان لي في قلبك نقطة دم يا غضبان، فلا تأت إلى هنا ولا تحاول إيذاء زميلاتي فهن لسن مسؤولات عما جرى.. لكلٍ منا طريقه يا غضبان!"

أحس برغبة في أن ينقضّ على أحد الجالسين، أن يبكي أمامه، أن يخبره بفجيعته.. وأن يبوح له بآلامه الكبيرة.

كانت عيناه مغرورقتان بالدموع عندما دفع كرسيه إلى الوراء وانفلت من باب الحانة مشيعاً بالهواء الفاسد. لفحته رياح كانون القارسة النقية وأعاد إليه المطرُ المنهمر بعض وعيه فتلفَّع بمعطفه السميك ومضى في الشارع المقفر محني الرأس.

قرع رأسه ميزابُ بيتٍ هرم. اندلق الماء العكر على وجهه.. تسلل تحت معطفه مطفئاً ذراتٍ الدفء في عنقه. اندفع مترنحاً إلى الأمام. قرعه ميزاب آخر. تذكر عادل:

(أخي في الرضاع كسرتُ يده دون أن أدري.. مطمور بالفقر. ابن الـ.. منذ وصوله إلى الشام يشترك في المظاهرات. ماذا سيقولون عني في القرية؟ أين سأخبئ وجهي؟)

امتزجت دموعه بماء المطر والميازيب. لمح أمه تقترب منه دون أن تخاطبه. ناداها. بصقت:

–   "يا ضياع حليبي فيك يا خسيس!"

انتفخت البصقة بسرعة هائلة.. تدحرجت نحوه تنفث دخاناً ملوناً. ركلها.. نفثت غيمة دخان لافح. انكمشت.. بدأت تنمو متدحرجةً نحوه بسرعة متزايدة. ركض أمامها. تعثّر. سقط. استدار. البصقة تتبعه. لامست نارها قدمه. التقط خشبة متشعبة. اندفع باتجاه البصقة وأهوى بها من فوق انهدام شاهق. أطلق تنهيدةَ ارتياح لكنه عندما فتح عينيه رأى جثة أمه مهشمةً فوق السفح!

(ويلي!!)

مرت به سيارة أمريكية مسرعة. قفز الماء المطعون وانحدر من على معطفه. اختفت السيارة في شارع فرعي. ازداد نشيج العريف غضبان. قرعه ميزاب آخر. لمح عصفوراً مبللاً مكوراً تحت نافذة مطفأة. اقترب منه. لم يتحرك. تناوله في راحة كفه. مرر أصابعه المرتعشة على رأسه المبلل:

"أنا أعبدك يا وردة"

زمّ العصفور عنقه. فرت وردة من بين ذراعيه. أحس أن سداً في قلبه قد انهار وأن دماً حبيساً قد اندفع في شرايينه وغمر جسده باللهب. قرعه ميزاب آخر. أطل وجه وردة من العتمة.. ابتسمت عيناه. صرخ والده:

"لا ينقصنا إلا هذه المصيبة. بنت مدينة! كيف ستعيش هنا؟ كأني أراها." يقلد صوت فتاة المدينة "والله أنا غير معتادة على حمل الحطب ولا على الحصاد" يعود صوته إلى خشونته".. لا، سوف نضعك أنت

وهي أمامنا.. نتغزَّل بكما ونزرع على خرائكما فجلاً! هل تريد أن تفضحنا يا ملعون الوالدين؟! ألم يتوظف في المدينة أحد إلاّك؟!"

أضرم خفقانُ قلب العصفور المبلل طفولةَ القرية في قلب غضبان. ودَّ لو كان في قريته"يعرجل" سطح بيتهم الترابي ويأكل التين المجفف حول الثفية ويستمع لحكايا حمود العاصي الممزوجة بالتبغ والمطر وثرثرة النار. شعر برغبة ملحة في التحدث إلى شخص ما. صرخ بأعلى صوته في الشارع المقفز:

"أريد أن أكون صديقكم! لا تخافوا! أحبكم!"

قاطعه الرعد وانجدلت خيوط المطر الثخينة شلالاً يقرع المدينة. سطع البرق ودوى الرعد مرة أخرى وانطفأت مصابيح الشوارع. مضى العريف غضبان يتخبط في العتم مبللاً من رأسه حتى أخمص قدميه ويده اليمنى حانية على العصفور الصغير القابع مطمئناً في قعر جيب معطفه السميك كما لو أنه قريته الصغيرة المشلوحة في مكان ما بين الجبال الموحشة.

وصل الشارع الرئيسي. لمح شخصاً قادماً باتجاهه، وما أن حاذاه الشخص حتى استوقفه قائلاً بطيبة:

"مساء الخير يا أخ"

رد الشاب التحية دون أن يتوقف أو أن يخفف من سرعته.

"مهلاً يا أخ. كيف الحال؟"

قال الشاب باستغراب:

"أهلاً!"

"هل تسمح بالقدوم معي؟"

"نعم؟! ولماذا؟!"

"أريدك في أمر هام"

كان المطر يهطل بغزارة شديدة وكان الشاب يوزع نظراته المشدوهة بين الشارع المقفر تماماً ووجه العريف غضبان الغارق بالمطر.

قال غضبان بصوتٍ حاول قصارى جهده أن يكون لطيفاً:

"أنا لا أعرفك حقاً.. لكني بحاجة إليك. سنتحدث قليلاً، ثم يمكنك أن تذهب.

استشفّ الشاب ضعف العريف غضبان.. صرخ في وجهه:

-"لكنني أستطيع الذهاب الآن يا أخ! من أنت؟ وكيف تسمح لنفسك بمخاطبتي بهذه الطريقة غير اللائقة؟!"

- "لا تصرخ يا أخ. عيب!"

- "سوف أصرخ.. أنت مجنون حتماً!"

استعاد العريف غضبان لهجته الآمرة:

- "لكنك ستذهب معي شئت أم أبيت!"

- "ومن سيجبرني على ذلك؟"

- "أنت موقوف. تفضل معي!"

دفع العريف غضبان يده أمام عيني الشاب ببطاقةٍ ما أن ميزها حتى اجتاحه ارتباك فظيع. همس مرتاعاً:

- "والله لا علاقة لي بالسياسة. أنا لم أوزع أي شيء.. قسماً! أنا طالب.. طالب آداب.. كنت سهراناً عند أحد أصدقائي.. يمكنك أن تفتشني.. تفضل.. هاه.. ليس لدي أي شيء، كما ترى.."

همس العريف غضبان بلهجة وادعة:

- "سوف تذهب معي.. المكان قريب"

دخلا الغرفة بصمت. الغرفة ضيقة جداً، رطبة جداً وقذرة جداً.

كانا مبللين تماماً وكان صوت المطر خاشعاً يغلف المدينة بصلاة وحشية. قال العريف غضبان وهو يلقي بمعطفه على السرير:

- "اخلع معطفك. سوف أشعل (البابور) وأعدّ لك قدحاً من الشاي".

حملق الشاب في وجه غضبان بريبةٍ رهيبة. صرخ متخذاً وضع المُدافع:

- "اقتلني! اقتلني لكن ما تريده محال! محال!"

انتفض العريف غضبان كمن طُعن في ظهره إذ اتضحت له ظنون الشاب. جأر:

– "ماذا تراني أريد منك أيها الحقير؟ هل تظن أنني..!! أنا! أنا غضبان بن علي العمري أفعل هذا؟ أنا!!"

امتزج صراخ غضبان ببكائه، وتهالك كالمصعوق فوق معطفه المرمي على السرير.

"لا أريد منك شيئاً.. أي شيء.. ليس لي صديق في كل هذه المدينة.. أردتُ أن تكون صديقي لساعة واحدة.. ساعة أبوح لك فيها بأسراري... لقد هجرتني حبيبتي اليوم وأنا أتمزق لأنني كسرت يد أخي في الرضاع دون أن أدري. قل لي. هل أبدو حيواناً؟ هل أنا حيوان فعلاً؟! انطق! قل!"

رجت البناءَ صاعقة هائلة فتذكر غضبان العصفور... هبَّ واقفاً كالمجنون.. رفع العصفور المهروس بيده وأطلق صرخة حادة طويلة:

"مـ..ا ..ا.. ت!"

وبينما كان غضبان منكباً على العصفور، التقط الشاب مكنسةً من وراء الباب وهوى بعصاها على رأس غضبان، فسقط في زاوية الغرفة مغمياً عليه.



- غضبان.. غضبان؟ ما بك أيها الخنزير، لماذا أنت نائم على الأرض؟

- من؟! احترامي سيدي.

- السيارة تحت. ماذا جرى لك؟ هناك مظاهرة في الحي الشرقي. انهض!

- سيدي. لقد ضيعتُ هراوتي في مظاهرة البارحة.

- حسناً. لدينا احتياطي من الهراوات. هيا!

انطلق غضبان وبدأ نهار آخر.

دمشق – كانون الأول ١٩٧٤

ثالاسيميا عظمى[٢]

وقائع الزيارة الأولى

"أول الدبكة حلج يا ابن أخي، فليتحنن الله عليك. غداً تأخذ ورقة الشهادة وتعلقها على الحائط وترى. عندها يصبح الشيء شيئاً ثانياً. صحيح أنّ بعض الأوراق تحط ابن آدم فوق الفوق أو تحت التحت. اسألني أنا.

هل اشتممت رائحة الفصل الناقص؟ فصل الحكيم حامد بن مريوما مع ولي نعمته الحاج حازم؟ هه. وغلاوتك عندما أتذكره يفور نافوخي كإبريق الشاي، ابن الدنيئة، الويل له من حساب الرب.. صرف الحاج دم قلبه عليه حتى علمه وعندما صار حكيماً بورقة، تَتَمْرَدَ وداس اليد التي أكل أصابعها. تفوه على هذا الصنف!

يقولون العين لا تعلو على الحاجب.. اسم الله! هاقد عشنا ورأينا! ابن الأفعى. من تراه يكون لولا حازم آغا؟ واحد ابن شارع لا يعرف أباه لَمَّهُ الحاج وأعطاه ماله واسمه! صدق المثل: ذنب الكلب يبقى أعوج ولو وُضع في القالب حتى يوم يبعثون. وابن الحرام يبقى ابن حرام حتى ولو صار حكيماً بورقة!

---

[٢] من مجموعة (العريف غضبان) صدرت لأول مرة عن وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٨

أتعلم؟ اتهموا الحاج بأمه لكثرة اهتمامه به، وعندما صار حكيماً وشمَّ الهواء أراد أن يخرب البيت الذي رباه! العمى، الأفعى لا تَبخُّ في الجفر الذي تشرب منه وهو أراد خنق من كان في مرتبة والده! تصور! لقد قال للعمال إن الحاج حازم يمتص دمهم! وهو الآن يحرضهم على تعطيل الشغل والمطالبة بأشياء لم يسمع بها الله! كل هذا لأن الحاج افتتح له عيادة واشترى له شقة تخزي العين وأوصى له على سيارة!!

والله صدق من قال: اتَّقِ شرَّ من أحسنت إليه! بشر!! قسماً لو كان هذا العاق يخصني لقطعته وأطعمت لحمه للكلاب! لكن بسيطة. هناك ربّ. وما نَطَحَتْ شجرةٌ ربَّها إلاّ لَواها ورماها!"

كان منير قد سمع هذه الأقاويل في أكثر من مكان لكنه لم يسمعها منمقة ومصففة كما سمعها من شاكر البحري. تمالك نفسه لفترة وعندما لم يتمكن من قمع الدم المتظاهر في وجهه، هبَّ واقفاً وقال بصوت هدَّجه الانفعال:

"أستأذن. لقد تأخرت".

ارتجف شاكر البحري كمن فوجئ برشقة ماء بارد فأدرك حالاً أنه لم يحسن انتقاء الموضوع. وراودهُ إحساس غامض بأن منير ربما كان يخالفه الرأي بحامد عطا الله أو يعرفه، فنظر إليه بتودد:

"ما بك يا ابن أخي؟ اجلس. أستحلفك بحياة الوالد...هل ظننت؟ أعوذ بالله.. أنا أشبِّهك بذلك الفائن؟ اجلس يا عيوني... اجلس بالله عليك!"

...وقبل أن تستقر أضلاع كرسي القش المنخفض تحت جرم شاكر البحري، صرخ باتجاه ستارة قماشية في زاوية الغرفة الجنوبية الشرقية محاولاً تمويه اضطرابه:

"ما قصة هذا "البابور" يا مديحة؟ لو كان جهنم لآن لها أن تشتعل! خلّصينا!"

رد عليه صوت أنثوي من وراء الستارة القذرة:

"جهنم تأخذ هذه النكاشات يا با... انكسرت كلها!"

شلح شاكر البحري يده في الهواء بحركة تذمرية ثم التفت إلى منير وربت على كتفه بحنوٍ صاف:

"أهلاً منير، لا تزعل من عمك شاكر. رحم الله والدك وهو حي. كان معلمي قبل الحادث. كنتُ يومها في قسم الأصبغة. كان بابنا على بابكم وكنتُ أنا والوالد أربعة أرجل بسروال واحد كما يقولون.. أي والله. كنا لا نفترق.. إيه.. كيف حالكم هناك؟ أتعلم، كدتُ لا أعرفك.. يا ماشاء الله، أيام. أذكرُ يوم ولدتَ. كانت أم مديحة قابلتك. كنتَ بحجم التفاحة. أي والله كنتَ أحمر كالتفاحة.. أحمر وتزقزق.

بعد مجيئك بأسبوعين، مرضتْ أم مديحة. كانت ضعيفة. وذات ليلة ضيَّقَ المرضُ عليها ولم يكن معي بارة لمداواتها. كنتُ أنا والوالد ليلتها. أي والله في تلك الليلة الملعونة قال لي بأنك ستكون حكيماً. قال وفعل. ما شاء الله. البارحة كنتَ بحجم القبضة وها أنت حكيم كالوردة ملءَ العين.

أنا عاتب على الوالد. رأيته البارحة صدفةً. سامحه الله لم يعد يطلّ علينا. دائماً يتحجَّج بالشغل. لكنه يعرف مثلي أن الأيام تنتهي والعمر ينتهي والشغل لا ينتهي. اسألني أنا"

أحسّ شاكر البحري بالحرج لأن منير لم يجامله ولو بكلمة واحدة فأخذ يفرقع أصابعه. وبعد دقائق من الصمت قال:

"أوصيت لك أن تمر بنا من أجل صويلح.. أنا لم أعد أحتمل يا ابن أخي. كان صويلح ملح أيامي بعد المرحومة.. اسم الله كان كقَطْفَة الحبق.. لا أعرف.. كأنّ عيناً لدغته! يا حسرتي صار مرآه يقطع نَياط القلب! عرضته على طبيب المستوصف. المحبة من الله. أنا لا أطيق هذا الرجل. في كل مرة ينظر إليّ كأنني عزرائيل ويقول لي من طرف فمه:"لا يشكو من شيء" ويعطيه حبوباً حمراء. في المرة الأخيرة فقدتُ أعصابي. صرختُ في وجهه:"كيف لا يشكو من شيء يا محروق الوالدين؟ ألا تراه ينسُ كرغيف منسي في التنور؟"

حرك منير كرسيه. تنحنح ثم قال بارتباك:

"عم شاكر، أنا لم أتخرَّج بعد، لكني جئتُ بناءً على طلب الوالد... هل ينام كثيراً؟"

أشار شاكر البحري إلى سرير معدني عريض يشغل زاوية الغرفة الشمالية. تمتم:

"لم يفق منذ أن عاد البارحة من المدرسة. يقول إنه مصدوع ولا يرفع رأسه يا حسرتي!"

همَّ منير بالنهوض لكن الستارة الرمادية استوقفته إذ تفتحت عن صبية سمراء تحمل صينية عتيقة من التنك مثبتة إلى قاعدة من الأسلاك المعدنية. اقتربت الصبية من منير. قالت بصوت عذب خفيض:

"تفضَّل أستاذ منير".

... وتناول كل منهما كأسه دون تردد وشرعا يرشفان الشاي بصمت. بعد الرشفة الثالثة قال شاكر البحري مبتسماً بتودد:

"هذه الصينية وهذه الكؤوس هدية من حازم آغا. أسألُ العزيزَ المقتدر أن يوفقه أنّى توجه وأن لا ينساه من رحمته. رجل ولا كل الرجال. لقد أرسله الباري رحمةً بنا فلو لم يحنِّن الله قلبَهُ على حالي لطردني من المعمل بعد أن هرستُ آلة التجفيف بيدي ولصرتُ شحاذاً مثل إبراهيم الدويك وحسيب البشراغي. هناك رب. والرب يعرف منزلته في قلبي. إلهي وفِّقْهُ وسدِّدْ خطاه. تصور، بقيتُ ثلاثة أسابيع خارج المعمل ولم يقطع من راتبي قرشاً واحداً. وعندما شفيت عينَيَّ عيَّنني مراقباً على قسم الطبع. رجل تقي. يحج ويصوم ويزكّي ويوزع الهدايا كل سنة. هداياه على قدّ حالها هذا صحيح، فليس معقولاً أن يوزع ثروته على الناس ويبقى على الحصير. لكنّ فصاً من الجوهر جوهر كما يقول المثل.

وحياتك، إنه يحمل هَمَّ العمال ويفكر بمصلحتهم ليل نهار ومع هذا تجد بينهم من لا يعجبه العجب ولا الصيام لا في شوّال ولا في رجب. أناس بلا أصل! بهائم لا يعرفون مصلحتهم! لقد جعل

الحكومة تبني لهم مستوصف صحة هنا .. هنا في هذه الحارة! وفوق هذا أجبر الحكيم على معاينة أولاد المدرسة كل أسبوع ومنذ سنة جلب لأولادهم الحليب الأمريكاني من (النافعة) ودفع أجرة نقله إلى المدرسة من جيبه الخاص. قل لي، أين يوجد مثل هذا الرجل؟ قسماً، عليهم تقبيل يده عند طلوع المباركة وعند مغيبها! أتعرف كيف يردون له الجميل؟ أولاد العكاريت يعطِّلون الشغل ويسبُّون عليه علناً و..."

ضرب منير كأسه بالصينية التنكية بقوة مقصودة ونظر بنفاد صبر إلى زاوية الغرفة الشمالية حيث السرير، فأدرك شاكر البحري بأنه لم يُحسن انتقاء موضوعه مرة أخرى، فتَشاغَلَ بنكْشِ منخاره والاستماع لأنين كرسي القشّ المنخفض.

... وارتجفت شفتا شاكر البحري عندما فكّ آخر زر في قميص ابنه. تمتم بصوت متهدّج ساحباً عينيه عن صدر الولد الهزيل:

"كأنه لا يأكل إلاّ التراب يا حسرتي. توقفتُ عن التدخين لأجله، لكنه كمن يسير إلى الخلف..."

جلس شاكر البحري على طرف السرير. أطلق تنهيدة مرتجفة. أدار وجهه نحو الحائط المتعب. وشلح رأسه المثقل بين يديه وسرح مع أفكاره.

"عم شاكر، ساعدني من فضلك. ارمِ المخدة خلفه".

... وراقب شاكر البحري عملية قياس ضغط ابنه بغياب. كانت عيناه معلّقتين بكيس الضغط الرمادي كأنهما ترجوان منه شيئاً ما. وبينما كان الكيس ينتفخ على دفعات، تشكّلت في عيني شاكر

البحري غيمة صغيرة ذابت فيها حدود المرئيات بالتدريج. وعندما تهدمت الغيمةُ على خديه، كوَّرَ سبابة يده الوحيدة وقطفها بهدوء.

حلّ منير مقياس الضغط عن ذراع صويلح. قال وهو يرفع السماعة عن أذنيه:

"عم شاكر، ما نوع الحقن التي أعطيتموه إياها؟"

ارتجف شاكر البحري كمن بوغت:

"حقن؟ نحن لم نعطه أية حقن!"

تمتم منير باستغراب:

"وما هذه إذن؟"

مطّ شاكر البحري رأسه مستطلعاً. كانت يد منير تشير إلى حُبَيْبَتين من الدم اليابس فوق الوريد عند بطن المرفق. شحب شاكر البحري. وضع يديه على كتفي ابنه صويلح وهزّه برفق. هزّه. فتح الولد عينيه ببطء.

"صويلح، من أعطاك الحقن يا با؟"

نظر صويلح إلى والده بوهن وغموض ثم أغمض عينيه من جديد.

هزّه بعنف أكثر.

"تذكَّر يا عيوني. كرمى لروح أمك تذكر! تذكر.." استوقفته لمسة هادئة من يد منير.

"عم شاكر. لا تجهده. هذا لا يفيده..."

تراجع شاكر البحري مطرقاً. التفت منير نحو مديحة وقال لها بصوت حيادي.

"أريد وعاء نظيفاً لغلي"السيرنك". سوف آخذ عينة من دمه للتحليل".

مونولوج أول

منذ يومين لم يفق حشيشة قلبي إلا دقائق. أكل قليلاً وشرب كثيراً ونام. وأنا وابنتي مديحة منذ يومين لم نأكل ولم نشرب ولم ننم.

البارحة ذكَّرني صمت الليل بقريتنا. أوقظ خطواتي في زواريبها وأوقظ زواريبها في قلبي. وعند الفجر اكتشفت أن العصافير هنا أيضاً تستيقظ مبكرة وتزقزق، وأحسست بأنني سأموت غريباً وبأنني لن أعود إلى هناك أبداً. واكن قلبي بارداً كتنور قريةٍ جرفها الطوفان.

البارحة تذكرت أيام طردتُ من عملي عندما كنت شاباً لأنني بصقتُ باتجاه المراقب. والبارحة بكيت عندما بصق شاب من عمال قسم الأصبغة باتجاهي، وصرخ آخر عند مدخل المعمل بأعلى صوته:"شاكر الجاسوس تاسومة!"

كنت أعلم أنهم لا يثقون بي ولا يحبونني والبارحة تأكَّد لي أنهم يكرهونني ويحتقرونني.

وقائع الزيارة الثانية

عندما أطلّ منير من باب الغرفة، قفز شاكر البحري عن كرسيه واندفع نحوه:

"أهلاً. ابن حلال. قل لي. إن شاء الله خير؟"

نقل عينيه بين شاكر البحري وابنته مديحة ثم ابتسم بتصنُّع واضح:

"لا شيء يذكر يا عم شاكر، اطمئن".

توقفا في زاوية الغرفة الجنوبية الغربية. قال منير بصوت منخفض:

"عم شاكر، كلام رجال، حالة صويلح غريبة، غريبة قدر ما تتصور. إنه يشكو من فقر دم نتج عنه وهَنٌ وشحوب شديدان وأنا لم أجد أي مبرر منطقي لهذا كله! عرضتُ حالته على أحد أساتذتنا في الجامعة وأريته التحليل فاندهش. التحليل يثبت أنه غير مصاب بأي مرض من أمراض الدم كما يثبت أن نسبة الكريات الحمر الشابة عالية جداً في الدم ومعنى هذا أنّ"النقي" الذي يولِّد الدم سليم ونشيط جداً!"

غمغم شاكر البحري:

"وما معنى هذا؟"

"معنى هذا أن ابنك صويلح سليم ويجب أن لا يعاني من فقر في الدم!"

"وما مرضه إذن؟!"

"قلتُ لك... فقر في الدم!"

احمرت تجاعيد وجه شاكر البحري وقد احتقنت بالدم. صمت لحظة ثم قال بصوت مرتعش حاول جهده أن يجعله هادئاً:

"ماذا تقول؟ وحقّ الله سأنهبل! تقول مريض بفقر الدم وتقول أنه يجب أن لا يكون مريضاً بفقر الدم. ما المعنى؟! قل لي بحق الـ... أوادم! رأسي سيطقّ!"

"هل تبرَّع بدمه؟

كان هذا السؤال أغر من أن يستطيع شاكر البحري احتماله، فزَوَرَ منير بعينين محقونتين بالغضب:

"مريض.. ووَلَد .. وتسأل!!"

انكمش منير لحظة. شدّ على يد شاكر البحري. همس بخوف:

"اسمع يا عم شاكر. في هذه الحالة هناك تبرير واحد لحالة ابنك صويلح هو أن الدم يؤخذ منه بكميات..."

انتفض شاكر البحري كالمصعوق. طعن منير بعينيه الحمراوين. وهناك في الأعماق رأى شيئاً أفزعه.

"أتذكر عندما سألتك عن الحقن؟ ربما..."

انفجر شاكر البحري برعب بركاني مجنون:

"ماذا؟! يأخذون دمه! د..مـ..ه!!"

مونولوج ثان

... وعند منتصف الليل أعطاني منير حبتين صغيرتين فهدأتُ وذبلتُ كالثوب واقتنعتُ بكل ما قاله لي. ليلتها حدثني عن الجامعة. قال لي إنهم ينظرون إليه كبيضة الديك. وقال لي إن الحكيم حامد عطا الله ليس فاتناً كما قلت، فقد رفض أن يكون سنارة ينشل بها الحاج حازم آغا جيوب الدراويش، فهو يداوي المحتاجين مجاناً وسيرد كل ما أنفقه حازم آغا عليه حتى آخر بارة. وقال إنه سيعود إلى حينا العتيق وسيفتح عيادته هنا. وقال إن من ينكر أصله لا أصل له. وقال إنه لم ولن ينسى الخبز والملح والأيام. وقال بأنه يتمنى لو أن والده ظل عاملاً ولم يشتغل بالتجارة لأنها مهنة قذرة. وقال إن اليد الملطخة بالشحم والزيت مباركة وإنه هو وأمثاله يتشرفون بتقبيلها.

وارتعبتُ من أن يندم عندما يكتشف بأنه قد وضع ثقته في غير محلها فشعرتُ بأنني مزبلة فأقسمتُ له بأنني لن أشي به وقلت له، أجل قلتُ له! أنا شاكر البحري صاحب اليد المبتورة.. قلت له إنني مزبلة! وطلبتُ منه أن يبصق في وجهي لكنه لم يفعل بل أطرق رأسه ومضى ولم يعد.

وقائع هذا اليوم

خلع شاكر البحري جزمته المطاطية ووضعها وراء الباب. لمح مديحة واقفة بجوار السرير. لم يتمكن من تمييز ملامحها بدقة بسبب الظل الساقط. ناداها. نظرت إليه ولم تجبه. قفز الليل إلى قلبه. ترنح لحظة ثم اندفع نحو السرير ممتقع الوجه.

"صويلح! صويلح! رد عليّ!"

هزَّه. ناداه. وعندما لم يبدِ أية استجابة وضع شاكر البحري رأسه بين يديه وانكبّ على وجههَ ينشج كطفل.

... وفجأةً توقف عن النشيج. انتفض كالمصعوق. كشف عن ذراع صويلح الأيمن. كشف... ها هي ذي حبيبة دم لم تتيبَّس بعد فوق وريد اليد اليسرى عند بطن المرفق.

... واتضحت أشياء كثيرة.

تمعدنتْ عضلات وجه شاكر البحري. قفز إلى زاوية الغرفة. اجتاحت يده سطح الخزانة. كسحت كل ما عليها. رعد شاكر البحري. قلب الخزانة بجذبة واحدة. عبق الغبار. تكشَّفَ عن خنجر عتيق معقوف، ما أن ميَّزَه شاكر البحري حتى التقطه ودسَّهُ تحت حزامه. زعقت مديحة برعب. حاولت اعترض طريقه فشلحها خلفه وانخطف عبر الباب.

كان يعرف طريقه جيداً.

وبينما كان يركض كانت الأفكار تتراكض في ذهنه وعندما توقف اتضحت الأمور أكثر. انهمرت أطرافه على باب بيت المعلم. صرخ المعلم من الداخل بحنق:

"طيب! قادم!!"

اجتاح شاكر البحري الباب كالريح. ارتعش نصل الخنجر على عنق المعلم.

"أعلم أنه لا علاقة لك. لكن إن لم تقل فوراً أين كان صويلح اليوم فسأغسلكَ بدمك. انطقْ!"

"أبعدْ هذا عني يا عم شاكر. صويلح راح إلى المستوصف منذ الصباح... طلبه الطَبيب لمعاينته ولم أره بعد ذلك. خير يا عم؟ عساه خيراً؟"

غمغم شاكر البحري بشيء ما ثم استدار راكضاً:

كان يعرف طريقه جيداً ويجري.

انهمرت قبضته على باب المستوصف. أطل وجه الممرضة من شق النافذة. قالت ببرود:

"انتهى الدوام. رح وتعال غداً."

وأغلقت النافذة.



وراء النافذة كانت النار تشتعل فوق الثلج الناعم، وكان الثلج يذوب ببطء النار المشتعلة، وكان الثلج الذائب يمضي نهراً طفلاً يحبو فوق الثلج.

يحبو.. يحبو.. ثم يخلع خفيه ببطء وينام. وحينما تنطفئ النار يموت النهر. ينقلب مسمار جليد مغروز في قلب الثلج الناعم.

مسحت الممرضة العارية العرق عن جبينها. نظرت إلى الطبيب المطفأ المتكوّم على وجهه بجوارها. قالت:

"أنت تضحك عليّ. أنت لا تحبني."

انتظرت رد فعله لحظة وعندما لم يتحرك انكبت على وجهها وأخذت تنتحب بصمت. فتحت عينيها قليلاً، خيِّل إليها أنها قد رأت ظلاً يتماوج فوق جسد الطبيب. استدارت. رأت شاكر البحري يقفز من النافذة ضاغطاً أسنانه على خنجره المعقوف ووجهه طافح بالعرق وعيناه تموران بالجنون. زعقت. اندلعت واقفة. لم يعترضها. اختطفت تنورتها عن طاولة المعاينة وطارت عبر الباب. ارتعش نصل الخنجر على عنق الطبيب.

أحكَمَ شاكر البحري أصابع يده على مقبض خنجره ولكز الطبيب بطرف ذراعه المبتورة. رعَدَ:

"ابن الأفعى! أنت ميت! قل ماذا فعلت بصويلح؟ انطق!"

ارتعش نصل الخنجر على عنق الطبيب.

"تمتصّ دمه؟!! قل!"

غاض لون الطبيب. أخذ يترنح ويشفط الهواء من خياشيمه. انشدَّت شروش رقبته. كشر عن أسنانه. أخذ يرغي وينتفض كالمصروع.

شلحه شاكر البحري على الأرض. تدحرج قليلاً. أخذ يخور بإيقاع متصاعد وجسده العاري يتلوى متشنجاً كجسد أفعى رأسها يُهرَس.

"قل!!"

ارتعش نصل الخنجر على عنق الطبيب. قال بصوت متقصّف جاف:

"سيقتلني! أقبّل نعليك! سيقتلني إن قلت!"

"قل!"

فحَّ الطبيب بذعر"

"داخل عليك! أنا بريء! بريء والله!"

"قل يا كلب!!"

"أنا بريء!! حازم هو... حازم آغا!"

انتفض شاكر البحري عندما ذكر اسم سيده. زعق:

"ما به حازم آغا يا نذل؟!! حذاؤه يبارك رؤوس أجدادك!!"

ارتعش نصل الخنجر على عنق الطبيب.

احتضن الطبيب ساق شاكر البحري. كوّر جسده العاري المرتجف حولها، وأخذ يهقّ وينشج بمرارة:

"صدقني! داخل عليك! حازم آغا... حازم جلبني إلى هنا... أجبرني على معاينة الأولاد.. منعني من الانتقال. هددني بالذبح. داخل على عرضك صدقني! حازم آغا... حازم... عنده ولد... ولد مريض.. مريض بالدم... بالدم يموت....."

واسمحوا لي بتجميد القصة قليلاً فهناك أشياء لا بد من إطلاعكم عليها.

استشارة طبية

نظراً لأن طبيب القصة غير قادر على إعطاء صورة واضحة للقراء عما يجري باعتباره من خَلْقي ويستمد معلوماته الطبية من معلوماتي المحدودة جداً، لهذا قمت بزيارة الطبيب أسامة الصالح – وهو الشخصية الواقعية الوحيدة في هذه القصة بالإضافة إلى شخصيتي طبعاً – وعرضت عليه ابن حازم آغا. وبعد أن عاينه ودرس حالته الصحية تبيّن أنه مصاب بمرض انحلالي في الدم يدعى "ثالاسيميا عظمى".

وبعد أن أوضح لي الطبيب أسامة مشكوراً حالة ابن حازم آغا الصحية والنفسية، أشار عليّ أن أستعين بكتاب "أمراض الدم" المقرر على السنة الخامسة في كلية طب جامعة دمشق، فوجدتُ فيه فصلاً عن هذا المرض أورد أهم الفقرات التي توضح طبيعته:

"يبدأ المرض خفيةً والشحوب هو أول الأعراض المنبئة وسببه نوبات انحلالية دورية وقد يظهر الشحوب منذ الأسابيع الأولى لولادة الطفل وقد يتأخر ظهوره عدة أشهر حتى سنتين"..."يتأثر نمو الطفل في المرض فيبدو صغير الحجم وأقل سناً من أقرانه الأصحاء وإن عاش إلى سن البلوغ فهو قاصر تناسلياً ومصاب بفاقة دموية"

ص. ٣٥

"بما أن هذا المرض وراثي فلا توجد معالجة شافية له ولا فائدة من إعطاء أي دواء. لذلك فوصف مركبات الحديد لمرضى هذا الداء لا فائدة منها إن لم تكن ضارة بسبب ترسب الحديد في الأنسجة بالإضافة إلى ما يرد إليها من مخلفات الكريات الحمر المنحلة. والشيء الوحيد الأساسي الذي يمكن أن يوصف هو نقل الدم مدى الحياة وبمقادير معتدلة تتناسب وفاقة الدم عند الطفل".

ص. ١٣٨

تتمة القصة

كان الطبيب ملتفاً على ساق شاكر البحري عارياً كدودة كبيرة. كان يلهث ويهقّ وينتفض وينشج وجسده يتصبب عرقاً بارداً.

"سيذبحني! هددني بالموت إن قلت! خبئني أرجوك! أنا وحيد أمي! داخل عليك، لا تدعهم يذبحوني. لا! لا!!"

جمد شاكر البحري في مكانه. تصاعدت أنفاسه وجحظت عيناه:

"ولماذا تأخذ من صالح وحده؟"

أقبّل نعلك! كاد محمد أن يموت البارحة! زمرة دمه نادرة.. نادرة لا تلائمها إلا زمرة دم صويلح! أنا بريء! هددني..!!"

بدأ شاكر البحري يترنح. سقط الخنجر من يده. تكوم فوق جسد الطبيب. أخذ يهقّ وينتفض.

"حا..ز..م!!!"

تدحرجت نقطة دم من شفته المسحوقة بين أسنانه. انفجر مقعقعاً.. يضحك.. يبكي.. يخور.. يفحّ.. يعوي.. يتهدم.

"لهذا أبقاني!!

لهذا!!

لهذا!!

لهذا!!"

دمشق – أيار ١٩٧٦

بطشيت[٣]

... وانظر حولك، إنني أشبه أول آدمي تراه، وإن لم يكن حولك أحد أكون أنا أنت...

لم تكن طفولتي مرحة فقد كانت يد زوجة عمي ثقيلة وكان زوج أمي يفزعني ويسميني"الجرو". وعلى الرغم من هذا وأشياء كثيرة كنت فخوراً بصديقي عبد القهار. وعندما هاجر مع أهله إلى جبل لبنان وصرت وحيداً، صادقتُ كلب عمي وشجرة السنديان العملاقة التي تربض على مطل قريتنا ولطالما كلَّمتُها وعانقتُها.

فليقولوا ما يقولون. أنا لم أحمل سلاحاً طوال حياتي. إلاّ إذا كانت هذه السكين سلاحاً. انظر إليها. إنها بحجم حبة البلوط ولا تذبح حتى النملة.

ثلاثون عاماً مضت. أنا لا أخجل من حياتي وها أنذا متلفّح بمعطفي الثقيل، متكوّر في هذه الريح القارسة، ألقّم النار عيدان الصنوبر وأقصّ عليك قصتي.

جس الشاعر وجوه الحاضرين بنظرة عجلى. شلح سيجارته من فوق السدة فرسمت في العتم قوس نار. شرع الشاعر يدوزن ربابته المحرَّقة المثقلة بشناشيل النمنوم والأكفّ الزرقاء الصغيرة – لدرء الحسد.

---

[٣] من مجموعة"قيامة عبد القهار عبد السميع" صدرت عن دار الأهالي بدمشق ١٩٨٨

حطت نسمة عن أكتاف البحر البعيد. رفرفت أوراق الحور الجافة فوق المظلة وطار بعضُها. أصارحك لم يكن شكل الشاعر الجوّال يبشّر بالكثير، لكنها الحاجة. الحاجة التي تجبر الآدمي على أن ينادي الكلب – يا خالي – هي نفسها التي جعلت بطشيت تتحلّق عن بكرة أبيها حول هذا الشاعر المهلهل. فقد مرت ثلاث سنوات ولم يعرِّج على بطشيت شاعر ولا غجري ولا قرّاد. ثلاث سنوات وبطشيت القصيّة المهملة تنتظر. ومهما كان هذا الشاعر فالكُحل خيرٌ من العمش.

تقول لماذا أعطيه كل هذه الأهمية؟ صدقني يا صاحبي، أنا لا أعطيه شيئاً. إنه مهم بحدّ ذاته لو تعلم. صحيح أنّ بطشيت عرفت الراديو منذ مدة، فأنا جلبتُ معي أول راديو إليها. لكن الراديو "راديو!" كما يقول عباس ضرغام. وأغاني الراديو لا تعوّض دفء أيدي الناس في مراسح الدبكة ولا العناقات الخاطفة المسروقة في زوايا الحواكير المستورة ولا الحكايات التي تبدأ ولا الحكايات التي تروح.

ثلاث سنوات ثم هاهوذا. شاعر يتربّع على اللبّاد. يدوّزن ربابته وينفث الدخان من خلال شاربيه الأشهبين المعقوصين. وهاهي ذي بطشيت تنتظر.

هكذا تبدأ حكايتنا.

كان الليل كابتسامة أمي وكانت بطشيت وتراً مدوزناً. يا للصمت الرزين! ارتعشت الربابة. ارتعش معها الليل والناس والنسائم وانطاق صوت الشاعر المشمس الحزين مولولاً ينشد قصيدة شعبية مجهولة المؤلف تحكي قصة شقي محبوب لم تعجبه القوانين ففرض قانونه الخاص.

يقول محمد الملحم قصيدة بيوت مسطّرة بوسط الكتاب

أنا اللي كنت أنزل عالسرايا حرام إن كان يتراجع جوابي

وعندما قال محمد الملحم وصاياه الأخيرة لزوجته نوف وطقّ عنقُه في أنشوطة المشنقة، لم يكن أحد يدري كيف، انتقلت بطحة الشلفون إلى سليمان حيدر ولا كيف صارت البطحة سبع بطحات! ما علينا. نحن لن نربك أنفسنا بتقَصّي مثل هذه الأمور الصغيرة، فهذه قصتنا وهي تبدأ هكذا! في البداية تخفف عبيدو صافي من جاكيته وتبعه آخرون ثم تخفف عبيدو صافي من وقاره وتبعه آخرون. هل قلت إن بطشيت قرية جبلية! إن لم أكن قد قلت ذلك فها أنذا أقوله. لكن لا تَأملْ مني أن أصفها لك. إنها ضيعة جبلية ككل الضياع الجبلية. ثم يجب أن تسهم أنت في القصة ولو قليلاً! هكذا تفتحت المشاعر وبدأت الذكريات تستعيد ألوانها ودمها. يا لليل الصيفي الحكيم. هاهم الناس يفقدون رصانتهم ويربحون أعمارهم. ومن لم يشرب، سَكرَ بالعدوى، ومن لم يسكَر بالعدوى، اكتشف أنه سكران بالوراثة! ها أنذا لأول مرة في حياتي أشعر بأنني

لستُ بحاجة لأي شيء، ولأول مرة في حياتي، أغني هكذا وأبكي هكذا. الأسرار تتململ في الصدور... وتنهدات اللمسة الأولى. قلوب تتلعثم.. رعشات خوف لذيذ... في الخواطر حكايات وفي الحكايات دروب وعلى الدروب صبايا.. لهاث صنوبرات على الجبل.. وقع أقدام صغيرة. صُدَفٌ محسوبة بدقة.. تلجلجات.. هسيس سنابل.. أقدام عارية.. شفاه تختلج.. شفاه مالحة.. شمس مالحة وطبول بدائية تدق تحت الجلد...

الحكايات تجذب الأماكن.. غارٌ وشربين وبطم وقطلب ومواويل تتداح من سفح لسفح.. ذكريات وحكايات.. سنابل تتكسر.. ضحكات تتكسر.. حسكٌ يخز الظهر الناعم.. حسك يخز أجفان القلب الرمدان... ذكريات وحكايات.. يا للأيام العتيقة.. حسك في القلب.

... وبعد منتصف تلك الليلة كانت بطشيت كباراً يتذكرون وشباباً يصنعون ما سيتذكرونه وصغاراً أغلبهم غارق في الأحلام وبعضهم على السدة يتغامزون ويبتسمون بخبث.

صحيح أن ضيعة بأكملها لا يمكن أن تفعل نفس الشيء كأن تتذكر مثلاً. لكن في تلك الليلة كان كل واحد يتذكر على طريقته الخاصة.

عباس مرعي حمل امرأته كالعروس وفي منتصف الطريق إلى البيت لم تحمله ناره فأخذ يغني لها ويباطرها تحت سنديانة المزار!

حسن سلامة الجلف حط رأسه على كتف امرأته زاهياً وصار يبكي لأن الأيام تروح ولأنه لم يحقق شيئاً من كل ما وعد به.

توفيق المكحل كان يدور على الصبايا يتسول منهن حسنة لوجه الله!

كاسر عباس كان يتسبب من خاف ظهور العباد ويده في يد فاطمة ابنة الشيخ شاهين.

والشيخ شاهين يلغط في عرزاله المنصوب على طرف مشبح الدخان.

"غضبَ اللّهُ عليك يا امرأة! قومي قومي يا حرمة! قومي انستري في بيتكَ. لا تفضحينا بعد هالكَبْرة. ما هذه الليلة يا رب. جُنَّ عبيدُك يا غفور! اللهم أجِرْنا من زَعَل الغنيّ وانبساط الفقير!"



صاح ديك الفجر وبطشيت ما تزال ساهرة. ذُبح ديك ثم جدي! فُتحت تنكة عرق. حُمي تنُور الحارة الغربية واختلطت رائحة الخبز السَاذج واللحم المشوي برائحة الليل الجبلي النديان العميق.

وكما دارت البطحة دون أن يدري أحد، استأذن الشاعر من مضيفه ونام دون أن يفتقده أحد. فالرجال الذين كانوا على السدة أطفأوا القنديل منذ مدة وتنازلوا للشباب عن الشاعر كي ينصرفوا لسماع ترنيماتهم الداخلية... الترنيمات القادمة من الذاكرة. أما الشبان فقد أحضروا صويلحة وأجبروه على كسر قسمه. وهاهي شبابته تصهل في وجه الليل داخل مرسح الدبكة.

في تلك اللحظات من العمر كانت بطشيت شهية متوردة وكان الدم يهدر في عروق أبنائها حتى ليكاد يُسمع خريره. كانت بطشيت تحتفل،

تحتفل لأول مرة منذ إبادة حملة الإفرنسيين في "وادي جهنم"... تحتفل بالجملة.. تعوِّض الأعراس الذابلة التي لم يدبك فيها أحد والأعياد الكثيرة الضائعة والمراسح الهزيلة، تغتسل من شحم دخان "شكّ البنت" ومن الدرك ومُراسِلي التبغ ومأموري الحراج!

وكما دارت البطحة...

انشقت الأرض عن ضوء ساطع وتعالى هدير محرك من عمق الصمت الذي استعاد هيبته. ارتعشت قلوب أمهات العساكر. هبت بطشيت واقفةً ثم انفجر الصمت وتعالت الولولة.

"ربما قتيل"

تلك كانت السيارة الثالثة التي تصل بطشيت منذ أن شقّ إليها هذا الطريق.

السيارة الأولى جلبتُها أنا.

السيارة الثانية جلبت تابوت ظافر السميع.

وهذه هي السيارة الثالثة تقرقِع متدحرجةً على الدرب الوعر الضيق الذي لا تجيء منه إلا السيارات الحكومية.

... ارتفع صوت لاهث من أمام المدرسة:

"مأمورو الحراج يا أبو أحمد"

كنا ما نزال تحت المظلة. همس أحدهم وأظن أنه عبد الرؤوف السميع:

"كبسة يا جماعة"

اجتمع أبو أحمد وسليم الصافي وعبد الله حميدو ومحمد العلي على طرف المظلة، تهامسوا بأصوات مسموعة ثم تناول سليم الصافي عصاه ذات الدبوس من تحت مكدس حطب قرب السدة وقال بصوت جريء:

"سنجمعها في مغاور عين الحجل. خاطركم. ادعوا لنا"

ثم انحدر نحو درب الوادي ساحباً محمد العلي من كمه بينما ركض أبو أحمد باتجاه المدرسة ويده على رأسه كي لا تطير كوفيته وعقاله.

أمام المدرسة المكونة من غرفة واحدة توقفت السيارة وترجّل منها ثلاثة رجال أحدهم برتبة نقيب. اقترب أبو أحمد منهم وهو يصلح وضع كوفيته وعقاله، قال لاهثاً:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

رد الضابط ببرود:

"أهلاً. أين المختار؟

رد أبو أحمد بتواضع ماسحاً شاربيه الكبيرين.

"محسوبك نائب المختار يا سيدنا"

قال الضابط بنفاد صبر:

..."تشرفنا. وأين حضرة المختار؟"

تمتم أبو أحمد ببضعة حروف لا معنى لها ثم جمع نفسه وقال متلعثماً:

"بسلامة فهمكم يا سيدنا... ضيعتنا ليس فيها من يفكّ الحرف. المدرسة عملوها منذ ثلاث سنين يا سيدنا... نحن نتبع مختارية الحرشة الشمالية والحرشة بعيدة والدنيا ليل..."

قاطعه الضابط مخففاً حدة لهجته:

"طيب يا..."

"محسوبك أبو أحمد يا سيدنا"

"طيب يا أبو أحمد. أريد منك أن تلمّ لي وجهاء القرية وعقّالها... أريدهم في المدرسة بعد عشر دقائق"

تنحنح أبو أحمد وقال بمرح مصطنع:

"خير يا سيدنا. تفضّلوا. البيت أحسن. كلنا شيوخ ولم تعد المدرسة تنفع معنا..."

لكن الضابط ترك"أبو أحمد" ومضى نحو سيارة الجيب. وبعد أن استقر في مقعدها الأمامي نظر إلى"أبو أحمد" نظرةً حارَ الآخرُ في تفسيرها وقال ناطقاً كل كلمة لوحدها:

"بعد عشر دقائق يا أبو أحمد"

وقع قلب أبو أحمد على الأرض. عطَسَ دون مناسبة وقال:

"تأمر يا سيدنا. تأمر أمر"

على لسان ضاهر شمّا:

... أي والله يا مرحوم الوالدين.. انزربْنا في المدرسة كالخراف. حاشاك! شيء يُبكي قلب الحجر. عينك ترانا، شباب ومعاجيز محشورون في مطارح أولاد زغاليل بعد كل هذا الشيب! والله فعلوها. أي وحق الخبز والملح دمعت عيني. لكن ماذا تعمل؟ والمصيبة أني فوق هذا لم أتمكن من منع نفسي من الضحك. يقولون شر البلايا يُضحك. أي والله صحيح يا ابن أخي. تعرف أبو ماجد، البركة بحجم أربعة ثيران ونصف. جاء وحشَر جثته كلها في واحد من هذه التي يقعد فيها الأولاد.. أي نعم مقعد. مرحوم والدك. والمقعد صغير. لهذا عندما دخل مأمور الحراج صاحب النجوم، عَلقَ عمك أبو ماجد فيه... وعندما تمكن من القيام، قام المقعد معه وبعد رفة جفن طاحَ... انخبط على الأرض والدنيا ساكتة! لم أقدر والله، لو لم أضحك لفطستُ وطلعت روحي. حتى المأمور نفسه ضحك. فما ذنبي أنا؟ ما ذنبي حتى يعاديني ولا يحاكيني سامحه الله!

فتُكَ في الحديث. قبل أن يدخل صاحب النجوم، نطّ فشتعون الراعي من الشباك وقال لنا عن الكبسة. أي والله يا ابن الحلال قال لنا بأن أكثر من مئة مأمور يطوّقون الضيعة. شغلة لعينة! وفَرَطَ الرجال يا ولداه! وحق الرب كنا كالمساطيل عندما فات.عملنا مثل أولاد المدرسة... وقفنا كأن الرعبة طيرت عقولنا. أما صاحب النجوم فطلَعَ على مرتبة الخشب وتطلّع فينا وقال لنا مثلما يقول المعلم للأولاد:

"تفضلوا يا أوادم"

وتفضلنا يا روح عمك. وعلق أبو ماجد في الـ... هذا مرة أخرى. احمرت عيناه وصار يضربني بنظراته كأنني طالع للتو من عند أم ماجد! ما بك تضحك؟ وحقّ الله لا أفعلها ولو قطعوا رأسي. ولكن الشهادة للّه ليس لأنّ نفسي عفيفة، فأنا ما وفَّرتُ امرأة طوال عمري والله أعلم. لكن مع أم ماجد وحقّ الله يخاف الواحد على روحه. البركة مثل الضبعة الكاسرة! مستشرسة أعوذ بالله!

خلنا نرجع إلى حديثنا. كلكم تعرفون. أبو ماجد وأنا رحنا تكملة عدد. أبو ماجد لأجل كرشه المباركة وأنا لأجل قنبازي الجديد الذي جلبه لي ابني عباس. لكن وحق خالق الخلق لم يكن بين كل الحاضرين واحد مكروب أكثر منه وأنا أشدّ على روحي حتى لا تطلع الضحكة!

قعدنا وقعد المأمور يعصر أصابعه ويقلبنا بعينيه مثلما تقلب الدريس بالشاعوب. أي نعم يا ابن أخي. وبعد أن شبع حماقةً فينا، تعرف أي شيء قال؟ قال يا سيدي إنه متأسف لأنه خرب السهرة.

ساعتها قلت لحالي:"اللهم أجِرْنا من الأعظم" بعدها فتح دفتراً وأخذ يقلبه وبعد حين بدأ يحكي عن الهواء والطقس والحراج. وكيلك الله كان يحكي مثل راديو الأستاذ ماهر لا فرق ولا فاصلة! أنا من جهتي وحق كل ما قاله أبوك لأمك تحت اللحاف ما فهت من كلامه ببارة! وبعد حين سهوت ولم أنتبه إلا عندما صرخ وكأنه يكلمنا عن ظهر جبل:"يا عُقّال بطشيت. سأقول بلا لف ولا دوران لأي شيءٍ نحن هنا" قلت له في عقلي:"هات وخلّصنا يا مرحوم الوالدين: طلعت أرواحنا! لكن الرجل ظلّ يصرخ ويشوبر في الهواء ربع ساعة ونحن نتطلع إليه كأنه يحكي بالافرنجي. لكننا عندما سمعنا كلمة"ماعز" أفقنا.

٢ — على لسان سويلم الطلب:

مجانين بمجانين. والله لن أتزحزح. خله يطقّ! من يظن نفسه؟ واحد جائع حكي، جاء يفقعنا خطابات قبل طلوع الضوء! اتركوني. أنا شفتُه وشفت أمثاله في الشام. الواحد لا يساوي فرنكاً ويريد معاملتنا كالبهائم! اتركوني أكامه. اتركوني أدخل. قسماً عَظَماً سأملخه نصفين! ولماذا أسكت؟ يسكت واحد مثلك. اصحوا يا نَوَر! أيام كان الواحد مثله يسوق ضيعة بعصاه، راحت. راحت وانقضت.. أنت السكران يا بَهيم. رح.. رح. اختبئ وراء امرأتك رح! والله لن أتحرك من عند الشباك. طقُوا! اسمعوه. اسمعوا يا بهائم. اسمعوا يا أولاد الزنا؟ أنا ما عندي ماعز ولا من يحزنون! لكن إذا جعتم سأجوع. اسمعوه! إنه يهدد الضيعة!

والله لن أتحرك ولو كانوا ألف واحد! أفلتوني. أفلتوني يا جبناء!

٣ – على لسان الشيخ شاهين:

يا أخوان. حطُّوا سويلم في بيته وكفانا فضائح. يا جماعة، خلونا نتفاهم مع حضرة الضابط. حضرة الضابط جاء كي يتفاهم معنا. خلونا نتفاهم معه. نحن لا يواتينا أن يغضب. غضب السلطان من غضب الرب. يا جماعة، كلام الضابط صحيح. صحيح قهراً عنا. نحن لا نقدر أن نترك الماعز مخبأً في المغاور حتى يوم يُبعثون. مأمورو الحراج يطوّقون الضيعة وسيصادر الماعز شئنا أم لا. لأي شيء تُيَبِّسون رؤوسكم؟ هذا شغل واحد لا يعرف مصلحته. يا جماعة. العين لا تقابل المخرَز. وهذه حكومة. وشغلة الحكومة شغلة عويصة! تعالوا معي. تعالوا معي حتى ندبّر الأمور. يا أستاذ ماهر. داخل عليك افهمهم. افهمهم يا أخي. أنت منا وفينا وتعرف الأوضاع.

وثيقة قانونية:

مادة ٤٨ – يمنع اقتناء الماعز في القرى الواقعة ضمن الحراج ويمنع رعيها في هذه المناطق طليقةً بشكل قطعان.يتم تصفية بيع الماعز المقتناة من قبل سكان هذه القرى خلال عامين من تاريخ نشر هذا القانون.

إن الماعز الذي لا تجري تصفيته خلال المدة المذكورة ويحتفظ به أصحابه في القرى الواقعة ضمن الحراج يُصادر ويباع لمصلحة الخزينة.

٤ – على لسان حمد الصالح:

شوفوا يا أولاد. غلطتي أني لم أبعثكم إلى المدينة. صحيح واللّه العلم نور. لكن ما طاح راح، وليس ضرورياً كي يفلح ابن آدم أن يكون متعلماً في المدارس. أنا باشرتُ تجارتي بليرتين. كنتُ أحمل كيس البضاعة على رقبتي من المفرق إلى هنا حتى أربح قرشين. أنا ما جمعتُ هذين القرشين بالأمر الهيّن. طلعت روحي عشرين مرة، وعشرين مرة قلت:"رحنا" لكن اللّه كان يسترني وأصل.

مرةً كنت في السوق. رأيتُ رجلاً مفلساً يبيع أغراض بيته. قمت واشتريت الفونوغراف. كلكم تتذكرونه. حطيته في الدكان وصار الناس يستمعون عندي، كل أسطوانة مقابل بيضة. وصرت... أنا أحمد اللّه على نعمائه. أنا لست بحاجة إلى أحد وكل الناس بحاجة لي. وكما ترون صار عندي ربع أرض الضيعة. صحيح أن كل الرزق من فضل الكريم، لكن يلزم على العبد أن يتحرك ويشغل عقله. الحركة بركة يا أولاد.

تعرفون. قضية ماعز ضيعتنا لن تؤبّد... سيصادره مأمور الحراج أولاً وأخيراً. فلماذا لا نستفيد نحن؟ نحن أولى من الأغراب! وضعُنا مليح الآن، لكن انتبهوا يا أولاد. يلزم أن يبين للناس أن كل واحد منكم في حزب. أنا لا أحتاج أحداً إلاّ اللّه. لكن يلزم أن يكون لنا ضلع في كل طرف.

٥ - على لسان همام مصطفى:

تفوه على ذقن والده! ابن النمس. انسلّ بيننا كالحنش وخرَطَ مشّطَ النقيب من وراء ظهورنا. طالع لأبيه. كان يريد منع الأستاذ ماهر من الحكي لكن الحاضرين أسكتوه وقالوا إن الأستاذ ماهر ابن الضيعة ومنا وفينا. وهذا صحيح. قبله جاءنا ستة أساتذة كلهم هربوا من فقرنا. لكن هو عاش معنا. وفوق كل شيء هو ابن ضيعة مثلنا. أقول لك يا إبراهيم، الأستاذ ماهر رجل. واحد يفهم ولسانه يبري الصخر. وحقّ رب الأرباب أسكَتَ صاحبَ النجوم ذاته! قال له: "تقولون إن الماعز يضرّ الحراج. صحيح أنه يقضم شيئاً من أوراقها لكنه يضع حفنة زبل على عرقها بالمقابل والزبل يسمِّد الأرض ويقوّي الحراج". وقال له عن الجراد، أي والله قال له: "في السنة الفائتة هجم الجادوم على جبالنا وجعلها عريانة ورمادية مثل ذقن الشائب. وما عملتم شيئاً لمكافحة الجادوم، والآن تريدون مصادرة الماعز بحجة أنه يأكل أوراق الحراج. شيء غريب: كأنّ حراجنا حراج! كلها أشجار قزمة لا تنفع إلاّ للحرق! عيني عليك يا أستاذ ماهر.

مازالوا مجتمعين في المدرسة. شُكوكي تَكويني يا ابراهيم. لهذا جئت. قلبي يشكّني ولا شيء في هذه الدنيا يقنعني بأن هذه الكبسة لوجه الله! أكيد أن وراءها "مفسد". أن سمعت الضابط من الشباك. تصور حضرته يعرف عدد ماعز ضيعتنا واحدة واحدة. سمعته بأذني كيف تفسّرها؟ قلبي يخزني والله.. من المستفيد من هذه المصيبة؟ أي وحق عظام جدي، قلبي يخزني. لكن "بعض الظن إثم"!

٦ – على لسان حمد الصالح مرة ثانية:

يا سيادة الضابط. كلام الأستاذ ماهر صحيح. قلتم لنا ربّوا أغناماً. بعنا الماعز وربيناه. لكن الأغنام فطست من البرد. قلتم ربوا دجاجاً. الدجاج لا يُطعم خبزاً ومع هذا ربيناه. لكن عندما حلّ الشتاء، فطس الدجاج كله. أخذه"الواغش. والآن تقولون لنا ازرعوا التفاح والليمون. طيب ياسيدنا. وهل هي مسحة الرسول؟ التفاح والليمون يكلّف ما فتح ورزَق. قل لي بالله عليك من أين سنأتي بمصاريفه؟ كلنا طفرانون وأنفاسنا محروقة. موسم الدخان راح كله ولم يكف لكساء عائلاتنا وشراء مؤونة الحنطة. هل تريدون تمويتنا يا سيدنا؟ ما رأيكم؟ كيف تريدوننا أن نعيش بدون دواب؟ نحن نفطر حليباً ونتغدّى متبّلة باللبن ونتعشى شوربة كشك.

الإشارة لكم يا سيدنا. لكن أنا أشور، حتى لا يموت الذئب ولا يفنى الغنم... أنا أشور يا سيدنا أن تتساهلوا معنا...

لا تغضب يا سيدنا. نحن نأخذ ونعطي. اسمع مشورتي أولاً. يا سيدنا كل ما تقولونه صحيح ونحن لا نقدر على الإنكار. فلولا الماعز لكانت بطشيت انمحت من الوجود. يا سيدنا أنا أشور أن نسلم الماعز بشرط...

يا أوادم ماذا حصل لكم؟ اسمعوني حتى أنتهي. اسمعوني. أنا أتكلم من أجلكم. اسمعوا وبعد ذلك أنتم أحرار. يا جماعة، بعد يومين سنسلم الماعز وأرجلنا فوق رقابنا. فلماذا لا تتركوني أكمل مشورتي؟

يا سيدنا. باين عليك أنك ابن عائلة وطيب. أنا أرى أن تتعهد لنا وأن تعطينا كلمتك بالمساعدة. القانون يقول بأن تصادروا الماعز. وأنتم مكلفون بمهمة. الله يعطيكم العافية. لكن القانون يقول أيضاً بأن تبيعوا الماعز لصالح الحكومة.

يا سيدنا هذه هي المرة الرابعة التي تكبسون فيها على ضيعتنا. وكل مرة كنتم تبيعون الماعز للأتراك أو للبدو وكنا نشتريه منهم ونهرّبه. يا سيدنا، نحن لا نطلب من جنابكم عدم تنفيذ مهمتكم. أعوذ بالله. كل ما نطلبه هو غضّ النظر.. نحن نسلمكم الماعز وأروح أنا أو أي آدمي بزي بدوي فتبيعوني إياه وتأمرون المأمور الذي ترسلونه معي بأن يغض النظر. قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق يا سيدنا. ونحن اللحم وأنتم السكين فافعلوا بنا ما تشاؤون.

٧ – على لسان همام مصطفى مرة ثانية:

سامحني يا سيدنا لأني دخلت دون إذن. ناري لم تحملني وهذه القصة تمسّنا كلنا.

والآن يا حمد الصالح تريدنا أن نسلم الماعز للحراج وأن نرسلك كي تشتريه لنا!! اسمع يا حمد الصالح. حتى الحمار لا يتعثّر بنفس الحجر مرتين. ونحن لم نسدد كل الفلوس المتبقّية لك ديناً في رقابنا من الكبسة الماضية. أما كفاك بلْعاً يا حمد الصالح؟ تتظاهر بالتقوى وتدّعي أنك معنا لكنّ الجميع يعلمون أنك رحتَ مع مأمور الحراج في الكبسة الماضية وأنك دبَّرتَهم. وعندما رجعتَ بعتنا ماعزنا بأضعاف

أضعاف ما دفعتَ! أما كفاكَ بلْعاً يا حمد الصالح؟! قسماً لولا مخافة الله لأقسمتُ بأنك أنت الذي وشيتَ بنا حتى تستغلنا وتخرب بيوتنا!

٨ — على لسان المحامي عبد القادر الطحان:

قال لي إن الأمور خرجتْ من يده. إنهم يتهمون ابنك بقيادة عصيان مسلح. الصبر منيح يا خالة. يقولون إن ضحايا العصيان سبع جرحى وثلاث سيارات. عليك بالصبر يا أم ماهر وما بعد الصبر إلا الفرج. ولا تخافي فماهر غير مسؤول عما حدث. حتى الحمار يعرف أن الناس يُجَنُّون إذا أُخذ منهم مصدر رزقهم الوحيد! اطمئني تماماً. ماهر غير مسؤول، لكنّ الأمور قاسية الآن لهذا فصلوه من الوظيفة. بإمكانك أن تطمئني تماماً. لكن يُستحسن أن يختفي لفترة. صحيح أنهم سكتوا على الماعز وأوقفوا الحملة على بطشيت لكنهم لا يستطيعون السكوت على مثل هذه الإهانة. وهم يبحثون عن واحد لكي يربوا الضيعة به. اطمئني تماماً. سلّمي لي على مَنْ أرسلَك وقولي له أن لا ينسانا من السمن والجبن كما فعل في السنة الماضية. بأمان الله يا أم ماهر. بإمكانك أن تضعي يديك ورجليك في ماء بارد وأن تطمئني، فسوف أفعل المستحيل.. اطمئني.

على لسان الأستاذ ماهر:

... وانظر حولك. إنني أشبه أول آدمي تراه، وإن لم يكن حولك أحد أكون أنا أنت...

دمشق شباط ١٩٧٧

الحاووط[4]

"أهلاً فسهلاً بالخال! عليم اللّه اشتقنا لطلتك الحلوة. ما معك حق تقطعنا... ولو يا زلمة، قل فيه لك قرايب. أنت ابن عنزتنا، والدم عمره لا يصير لبناً"

شلح طاهر صالح – المعروف بابن غنيجة – طرف كوفيته البيضاء الهفهافة على كتفه بخفة. مطّ جسده نحو الباب صائحاً بفرح مصطنع:

"وا غزالة. تعالي يا بنت الحلال، حلت علينا البركة!"

دخلت غزالة الأربعينية البدينة المترجرجة. شلحت حضن الحشيش الذي كانت تحمله أمام البقرة المربوطة خلف باب البيت ثم استدارت فاتحةً ذراعيها شارحةً وجهها، قائلةً بأقصى ما لديها من رقة:

"ويلي عين عيني أنت! أهلا ببَصَّة عيني وريحة أحبابي... أهلا بالغالي حبة القلب..."

قاطعها زوجها قائلاً بحماس:

"حطي الأكل. أكيد ابن أختي جوعان"

رفع محمود يده الضخمة قائلاً بلهجة مرحة فيها شيء من تهكم:

---

[4] من مجموعة (عبد القهار عبد السميع صدرت عن دار الأهالي بدمشق ١٩٨٨

"لا تعذّبوا حالكم. كسرت الصفرة وجيت"

تابع بصوت جدي:

"إي خال. قم لنشوف وين فكرك تحط الحاووظ"

تذكر ابن غنيجة أن الوقت يروح على حسابه فنهض بخفة قائلاً:

"ياللّه خالي ياللّه!"

بعد لحظات كان الرجلان يتفحصان قطعة الأرض الصغيرة التي ستصبح خزاناً للمياه. شفط ابن غنيجة الهواء من منخريه لجذب الانتباه. قال:

"شوف عين خالك. شرط الحقل ولا قتال البيدر. حبَّك تشتغل بالمياومة، اشتغل، حبك تشتغل بالمقاطَعة يا مرحبا بك".

هزّ محمود كتفيه العريضين: "ما فرق".

أشار ابن غنيجة إلى صخرة بارزة أسفل الرعش يوحي مظهرها أنها ذات امتداد كبير تحت الأرض.

"لا تتوهم منها... ضربتين ثلاثة بالهادورة والسلام. هالأرض معلومك كلها تراب"

كان ابن غنيجة يعرف أنه يكذب. فعندما حفر أساسات بيته اكتشف في الأرض مقلعاً للحجارة واضطرّ مراراً لاستخدام البارود. أمعن النظر في وجه محمود. لم ير فيه أي ارتياب.

"وإذا كنت تشكّ بكلام خالك رح واسأل المعمرجي"

نفض محمود سيجارته. قال مجاملاً:

"ولو يا خال. مصدّقَك!"

ابتسم ابن غنيجة بدهاء. ربت على كتف محمود قائلاً:

"الشهادة لله طول عمرك ابن أصل وصاحب نظرة. شُف يا خالي. أنا مطمور بالشغل لفوق راسي وما عندي فضا راقبك وأعمل شوباصي عليك. فاحفر لي هالحاووظ مقاطَعة بعمق ثلاثة أمتار، ولكَ مني ورقتين من أم الميّة. وأنت وحظّك. إن شاء الله تحفره بساعة أو سنة ما دخلي!"

"الأجرة ما خلاف! ناولني عملة حتى أباشر شغل". هزّ ابن غنيجة كتفيه بحيوية. تناول من جزدانه ورقة من أم العشر ليرات وفتحَ فمه يريد أن يحكي، لكنّ محمود قاطعه قائلاً:

"اتركها محلها... وناولني من الميات الزرق"

نقز ابن غنيجة لكنه أخفى انزعاجه ومدّ يده بمئة ليرة إلاّ أن محمود رفع حاجبيه علامة الرفض. قال ابن غنيجة بغضب وقد عادت لهجته إلى طبيعتها.

"فزعان آكُل حقَّك... يا يهودي!"

قال محمود ساخراً:

"قبل تكة كنتُ ابن أصل وصاحب نظرة! المهم. إذا كان على بالك تحفر الحاووظ خيِّط بغير ها المسلة وناولني عملة!"

أعاد ابن غنيجة طرح سؤاله بحدة:

"خايف آكل حقك يا ابن الأبالسة!"

"والله يا خال أنا محشوك. حرمتي ماهي ساغ ونزلة الحكيم تكلف ما فتح ورزق. ثانياً إذا ودَّك الصراحة أنت تأكل بخور المزارات وأموال اليتامى... واللهُ شهيد!"

احتقن وجه ابن غنيجة فبدت الندبة التي تغطي أسفل ذقنه واضحة مثل لطخة صفراء. نظر حوله في كل الاتجاهات، كما لو أنه يبحث عمن يشاركه دهشته. لكن الزاروب كان خالياً وكذلك المرتبة التي يتشمس عليها أهل الحارة عندما تطل الشمس من خلف غيوم الخريف.

"إخ تفو...!"

قاطعه محمود محتداً:

"عَندَكْ! لا بخاطرك ولا مع السلامة!"

ثم تسلق الرعش بخفة ومضى يهز أكتافه في الطريق الذي جاء منه.

سمَّرت المفاجأة ابن غنيجة لحظة. وعندما انتبه لنفسه صاح:

"يقطعك الله ما أجحشك!"

التفت محمود وفي فمه شتيمة كبيرة إلا أنه ضحك عندما رأى ابن غنيجة يلوّح له بورقتين من أم المئة.

لم يستطع ابن غنيجة أن يذهب لدكانه عندما رأى محمود يغوص في الأرض بسهولة. فالصخرة التي اعتقد أنها ذات امتداد كبير تحت الأرض لم تحتمل سوى نقّرتين بالهادورة ولكزتين بالمخل! والمقلع الذي توقع ابن غنيجة أن يصطدم محمود به بعد ضربتين بالقزمة لم يظهر!لذا بقي ابن غنيجة يتفتَّل حول محمود وتفاحة آدم تضغط على جلدة عنقه من الداخل كمقدمة سفينة تصعد وتهبط كلما ابتلع لعابه.

"ما لكَ يا خال؟ شايف أنك صرت شوباصي وأكثر! رح لدكانك استرزق واتركني أعرف أشتغل!"

نخر ابن غنيجة بضيق وراح لدكانه. لكنّ ناره لم تحمله فرجع بعد نصف ساعة بحجة أنه نسي علبة الدخان. وما أن رأى ابن غنيجة يرفش التراب وقد غاص في الأرض إلى ركبتيه حتى ضرب الدم في رأسه وصار يفرك فخذيه بيديه كما لو أنه ينتظر وقوع مصيبة.

"حوَلْتَني! ما بك تفتل كأنّ في قفاكَ دودة؟!"

نخر ابن غنيجة مرة أخرى وعندما غاب عن محمود استدار باصقاً نحوه باشمئزاز:

"تفوه على هالسلالة!"



قبيل العصر أقفل ابن غنيجة دكانه ورجع إلى البيت. عند العتبة سمع زوجته غزالة تدعو محمود أن يستزيد من طبق المتبّلة الموضوعة أمامه:

"كل يا عين عين خالتك! أيليه.. ريته ألف صحة يا ريحة ..."

قاطعها زوجها:

"ريحة الأبالسة! قال ابن عنزتنا لا بارَكَ اللّه!"

أكل محمود ملعقة أخرى من المتبلة وهو يغالب ضحكته. مسح شاربيه المتهدّلين باكتئاب. قال:

"بيت عامر إن شاء اللّه! بفرحة سليمان. ياللّه بخاطركم"

قطع ابن غنيجة النفس الذي يسحبه من سيجارة القشق. قال باندهاش:"قرد! وشُغْلَك؟"

"شغلي خلص يا خال. وعندي رعش بقليعة المسيل لازم أعمّره.. الشتوية على الأبواب"

نطّ ابن غنيجة كما لو أنه تلقى نخزةً في قفاه:

"هه! كيف خلص؟"

"مثل ما يخلص الشغل. وإذا ما مصدّق، قم شف بعينك"



قاس ابن غنيجة أبعاد الحاووظ بيدين مرتجفتين وعندما رفع رأسه بدا وجهه محتقناً بالدماء كما لو أنه مفروك بالفليفلة الحادة، في حين أصبحت الندبة التي تغطي أسفل ذقنه أكثر اصفراراً.

استجمع اللعاب في فمه. قال بصوت متلجلج ووجهه يختلج بحركات لا شعورية:

"لا يا خال. شرطنا كان ثلاثة أمتار ونص"

فرك محمود وجهه بيديه مطلقاً ضحكة خبيثة. قال وهو يخلع السترة الخاكي التي بقيت له من أيام الخدمة الإلزامية.

"أنت حطّيت الشرط وخمّنت الأجرة... لكنّ المخجّل للنار... تكرم شواربك يا خال"

بعد ساعة كان ابن غنيجة ما يزال مبهوتاً مما جرى. سمع خربشة القطة وهي تطارد فأراً خلف عنبر المؤونة فظنّ أن زوجته ما تزال هناك تنخل الطحين فأطلق تنهيدةً عميقة باتجاه العنبر وقال:

"شيء مثل الكذب. ما طلع معه ولا حجر واحد! كله تراب رخو. والشيء الذي يحرق قلبي هو أني بِستُ يدَهُ حتى قبلَ أن يأخذه مقاطعة! قسماً..."

"سلامة عقلك يا خال. ما بك تُقَرْوِش مع الحيطان..."

نقز ابن غنيجة وما أن تأكّد أنه يكلم نفسه حتى نخرَ في وجه محمود:

"وأنت كيف طلعتلي يا قرد!"

كتم محمود ضحكته قائلاً باستخفاف:

"إي قم شف الشغل. أنا رايح"



عندما انتهى ابن غنيجة من قياس الحاووط، أخذتْ عينُه اليمنى ترفُّ لا شعورياً وبدأ خده الأيمن يختلج ساحباً شفتيه الجافتين:

قال مبتلعاً لعابه بصعوبة:

"لا يا خال.. شرطنا كان أربعة أمتار"

انفجر محمود بالضحك حتى لم يعد قادرً على حَمْل نفسه. جلس على كومة التراب الرخو الطري ثم استلقى على قفاه ليواجه السماء. تأمل أشعة ما بين العصر والغروب وهي تخترق الغيوم الخريفية المتباعدة مضفيةً عليها حمرةً خفيفة مشرّبة بالزرقة. تذكر أيام النوم على البيدر ومتعة السَّرَحان في السماء بين النجوم والكواكب. تذكَّر طعم القبلة الأولى المضمّخة برائحة الدَّريس. استعاد حياته على وجه السماء خلال لحظات، فامتلأت عيناه بصور أولاد الأربعة وزوجته المريضة. توقف عن الضحك ونزل إلى الحاوظ متمتماً بزهد:

"إيه يا خال. كله رايح.. الحاووظ وليراتك وتعباتي.."



قبيل الغروب نزل ابن غنيجة ليقيس الحاووظ من جديد. وعندما فرغ منه، صعد السلم الخشبي وهو يطحّ مترنّحاً كالسكران. عند آخر درجة نظر إلى محمود بعينين فارغتين ثم قال متبكبكاً:

"الصراحة يا خال، الاتفاق كان خمسة أمتار..!"

نظر محمود إلى وجه ابن غنيجة الطولاني الشاحب فبدا له دميماً وبائساً. لاحظ أن ندبة ذقنه تتكرنش متموجةً وقد احتبس فيها الدم. ضرب صدره بيديه مقهقهاً بكل ما في جسده من قوة. ضحك... ضحك! وبين الجد والمزاح ضغط على قلبه صارخاً:

"آخ يا خال... قتلتني!"

وفجأةً جحظت عيناه وارتخى جسده ووقع منسطحاً على كومة التراب. استقر لحظةً ثم انزلق إلى الحاووظ ساحباً معه ابن غنيجة وخلفهما سيل من التراب.

دمشق أيلول ١٩٨٦

قيامة عبد القهار عبد السميع°

إلى عاصي الرحباني

ضغط الأستاذ عبد القهار عبد السميع صدغه الأيمن بيده النحيلة. سرح بعينيه في الشقة الصغيرة المستأجرة. توقف عند زوجته سميعة وهي تقترب بمنامتها البنفسجية الشفافة تتقدمها رائحة القهوة.

(سميعة أبو علي. ثلاثينية. سمراء. تعرفت على عبد القهار عبد السميع إثر أمسية شعرية أقامتها في مقصف الأزروني بجامعة دمشق فأحبها وتزوجته. لها عدة دراسات متميزة في مجال الأساطير الشرقية القديمة لكنها توقفت عن الكتابة نهائياً منذ خروجها من بيروت مع رجال المقاومة الفلسطينية.

جلست سميعة على كرسي القش مقابل زوجها. ابتسمت له قبل أن تمد يدها لسكب القهوة.

يا إلهي كم ابتسامتها حزينة. قال:

"اليوم رأيتك في المنام"

° من مجموعة بنفس العنوان صدرت عن دار الأهالي بدمشق ١٩٨٨

نبض وجه سميعة.

لا. لن أحكي لها. ما فيها يكفيها. الأشياء التي تخفى تترسب صدأً في القلب. مع ذلك لن أحكي لها. ما فيها يكفيها. آخ يا أمي. أشعر كأني منفوخ بغيمة سوداء مليئة بالبرق والرعد. رجلي خدرة وثقيلة وعشرات الدبابيس تنغرز في صدري. يدها على يدي. يا إلهي كم هي بعيدة. لا...

"وين رحت؟؟ احاكِ كيف شفتني بمنامك؟"

"بتتذكّري طاحون المي اللي تحت ضيعتنا"

آخ يا طاحون الماء. رأسي ثقيل ويدي لا تطاوعني. أريد أن أشرب ولا أستطيع رفع كأس الماء عن الطاولة.

"شبك اصفرّ لونك؟"

"ما في شي. شفت حالي مربوط على حجر الطاحون تحت شجرة الغار..."

... ومن حولي كل العائلة: الشيخ أبي وأخوتي وأولاد عمي. وأنت يا سميعة. كنت تبكين فتسقط دموعك على وجهي وأنت تخيطين عيني اليسرى بالإبرة والخيط بعد أن أغلقت فمي وعينيَ اليمنى. كان وجهك الباكي هو آخر شيء رأيته في هذه الدنيا قبل أن يشلحوني في بئر الطاحون.

"وبعدين، شو صار؟"

... جاءت ابنتي ريم. ربطت نفسها بحبل. نزلت في بئر الطاحون وانتشلتني. فكّت القطَب عن فمي وعيني. خبأتني وداوتني وعندما شُفيت جاء أبي فعانقني. ومن شدة العناق متُ بين يديه.

"شبك يا عبد القهار. إذا ما بدّك تحكي لا تحكي."

"لا، بدي أحكي. بس شردت شوي"

"طيب. شو صار معك بعد ما شفت حالك مربوط على حجر الطاحون؟"

"صرت أصرخ. فجيتِ أنت وريم وأفلَتّماني"

ابتسمت سميعة لزوجها وهي تنظر إليه بتشكك ثم نهضت بحيوية وقالت وهي تدخل المطبخ:

"هيك لكن! صاير عمتشوف كوابيس متفائلة!"

يتكرر وجه ريم في رأس عبد السميع كنبضات ضوء على شاشة بيضاء. ريم ما تزال نائمة. حاول أن يصرخ:

ريم..! بابا... يا ريم... ريم!

فرشت سميعة كومة العدس الصغيرة في الصينية وهي تخرج من المطبخ. قالت قبل أن ترفع رأسها:

"البرغل مسامير الركب!"

كان عبد القهار يحملق في الفراغ بفم مفتوح. قفزت فكرة الموت في رأسها كجرذ ضخم. أفلتت الصينية واندفعت نحو زوجها. هزته فسقط عن الكرسي. فتحت باب الشرفة على مصراعيه. شقت ثوبها إلى الأرض وركضت إلى الخارج بنهديها العاريين المرتجين تحاول أن تصرخ لكن الصوت احتبس في حنجرتها.

أول الواصلين كان أول من رأى نهدي سميعة.

(سلامة أبو سليم، الملقب أبو علي. أربعيني. متزوج وله ستة أولاد. ملك العمارة التي أمضى فيها عبد القهار عبد السميع آخر أيام حياته. سُرِّح من الجيش بمعلولية. كان فقيراً معدماً ويقال إنه اغتنى من التهريب. جملتُهُ المفضَّلة: "عسكري. دبِّرْ راسك").

حملق أبو علي صاحب الشقة بالمرأة المذهولة كما لو أنه يستشيرها فيما يجب فعله. مرّ بعينيه العكرتين على جسدها المكشوف فوجده كما كان يتصوره تقريباً – كان أبو علي يعرّي سميعة على شاشة رأسه مراراً كل يوم. وفي إحدى المرات شعر أنه قد لامسَ حلمتي نهديها عن بعد عشرة أمتار – تناول شرشفاً عن حبل الغسيل – لم ينسَ التأكد من جفافه باللمس – ثم اقترب متباطئاً يلعق جسد سميعة الوردي الناعم بعينيه. لكنه سرعان ما أدرك أن الثوب المشقوق هو راية الموت. فأشاح بوجهه عن سميعة ولفّها بالشرشف متمتماً بورع والدموع في عينيه:

"حسبي الله ونِعْمَ الوكيل! حسبي الله ونعم الوكيل!"

تعلمون أن الإنسان يموت مرة واحدة ويدفن مرة واحدة، اللهم إلا إذا كان جباناً، عندها قد يموت مئات المرات لكنه يدفن مرة واحدة. أما بطل قصتي عبد القهار عبد السميع فمصيره مختلف. فقد مات مرة واحدة ودفن مرتين. المرة الأولى قبل تسعة عشرة عاماً ويشهد عليها الضريح الرخامي الضخم الذي يشغل صدر مقبرة البلد ويحمل اسم عبد القهار عبد السميع منقوشاً ومطلياً بماء الذهب. أما المرة الثانية فهي التي سنكرس لها البقية المتبقية من قصتنا.

ونظراً لأن الإنسان لا يدفن مرتين دونما سبب، اسمحوا لي أن أؤجل الحديث عن الجنازة الثانية لعبد القهار عبد السميع لحين توضيح ملابسات جنازته الأولى.

أعود بكم الآن تسعة عشر عاماً إلى الوراء إلى أمسية حارة من شهر تموز عام ١٩٦٧. أصارحكم أنني لست راغباً بتحديد المكان الذي تجري فيه أحداث قصتي هذه لأسباب تكتشفونها فيما بعد. لكن المكان هو إناء الزمن. ولكي لا ينسكب زمن قصتي في الفراغ، افترضوا معي أن الأحداث تجري في بلدة ساحلية سأسميها (س) على سبيل التعمية.

والآن فلندخل في المشهد.

على شرفة بيت ضخم من الحجر الأبيض المنحوت في مدينة س التي يلعق البحر ساقيها، يقف، شيخ جليل يعبث بلحيته في ضوء

القمر. إلى يمينه كرسي من الخيزران. إلا أنّ روحه واقفة. وكيف للجسد أن يجلس حين تقف الروح!

جبة رمادية طويلة. لحية مسترسلة وخطها الشيب. جبين عريض ذكي وعينان تغزلان في محجريهما. أعرّفكم عليه:

(الشيخ أحمد عبد السميع. ستيني. له خمسة أولاد وثلاث بنات. أرمل. معروف بنزاهته ورجاحة عقله. يقصده الناس من مختلف أنحاء المحافظة لحلّ مشاكلهم بدل اللجوء إلى المحاكم. يعيش من دخل أرض كبيرة ورثها عن والده. نزح إلى المدينة بعد زواجه بسنة واحدة واشترى بستاناً صار يرعاه بنفسه).

أعترف أنني أشعر برغبة جارفة في الدخول إلى عالم هذا الرجل. لكنني أخشى حقاً أن أضيع وأضيعكم معي في مسالك عقله الغامضة المليئة بالأفكار الباطنية وخيالات المتصوفين وقصص الجن وأبيات الشعر والأدعية المسجوعة وصور المدن الفاضلة.

لذا دعونا نكتفي بمراقبته من بعيد، واقفاً على الشرفة، يعبث بلحيته الوقورة في ضوء القمر.

يهمس صوت من خلف النافذة الموارية:

"وصل"

فاشكروا معي ذلك الصوت لأنه أعفانا من متابعة ما يدور في رأس ذلك الشيخ الوقور الغامض.

يرفع الشيخ طرف جبته بحركة لاشعورية، ثم يستدير داخلاً إلى البيت بحيوية لا تنسجم مع جلال وقفته على الشرفة.

كان بطالنا عبد القهار عبد السميع يخلع حذاءه عندما انفتح باب غرفته عن شقيقه الأصغر عبد اللطيف.

"كلِّم الوالد"!

فوجئ عبد القهار بوجود أخوته الأربعة وأعمامه الثلاثة في مجلس والده. ألقى السلام فلم يجبه أحد. قال الأب بصوت أجشّ هدَّجه الانفعال:

"سمعتُ عنك ما ساءني وهدَّني. غير أني لن أذاكرك فيما سمعت. لي عندك شيء واحد. إن وجدتُّه في مكانه، كان لك عندي كل شيء. وإن لم أجده فقدْنا ولداً غالياً واستعضنا عنه بوجه الكريم"!

فوجئ عبد القهار بلهجة والده الباردة القاطعة كحد السيف. قال:

"خير يا أبي. شو سمعت؟"

رد الشيخ بحزم وبرود:

"أما سمعتني يا ولد! قلت إني لن أذاكرك فيما سمعت. والآن عليك أن تسمعني الشهادتين أمام أعمامك وأخوتك لأتبيّن هل جاء النبأ من فاسق أم من فاعل خير.

شُده عبد القهار عبد السميع لطلب والده الغريب وعندما طال صمته خاطبه الوالد بنفاد صبر:

"ما قولك يا ولد!"

رفع عبد القهار عبد السميع رأسه. استعرض وجوه أخوته، عبد الإله، عبد الجبار، عبد الواحد وعبد اللطيف. نظر إلى أعمامه بحيرة ثم قال يتأمل وجه والده المتورد بغيظ مكتوم:

"أنا أغسل يدي عشر مرات في النهار من تلقاء نفسي. لكن عندما يأمرني أحد بأن أغسل يدي لا أفعل قبل معرفة السبب. لقد علّمتني أن الله يتجلى أكثر ما يتجلى في العقل. كما علمتني أنّ إخضاع العقل لضرورات العيش اليومي كُفْر. وأن إرغام العقل على قبول شيء ما دون إقناع هو إذلال له حتى لو كان ذلك الشيء من جوهر العقل. أوَلستَ أنت من كان يردد أمامي قول المعري:

أيها الغرّ قد خصصت بعقل فاسألنه فكل عقل نبي

فلماذا لا تناقشني الآن كما عوّدتني؟

صرخ الشيخ الوقور وقد احتقن وجهه بالدماء.

"كنت أناقشك وأنت داخل الحظيرة. أما وقد أشركتَ وضللت فلا نقاش معك حتى ترجع عما أنت فيه. فافعل ما أمرت به أو اخرج من بيتي مسبوقاً بلعنة الله وسخطي"

قال عبد القهار بصوت متهدّج:

"تريد إذلالي أمام إخوتي وأعمامي ونفسي. فوالله لا أمكّنكَ من ذلك أبداً!"

ثم خرج من بيت أهله ولم يرجع إليه حياً.

في تلك الليلة جمع الشيخ أحمد عبد السميع وجهاء عائلته ونعى إليهم وفاة نجله الأكبر عبد القهار. كان أخوة الشيخ يعلمون أنه حين يقرر أمراً لا يرجع عنه أبداً. لذا لم يناقشوه بمسألة طرد عبد القهار من البيت بل ركزوا كل جهدهم لإقناعه بعدم إخراج جنازة له. لكن الشيخ زجرهم ببرود:

"إكرام الميت دفنه"

أجابه شقيقه الأكبر عبد المتعال:

"بس عبد القهار لسَّاه طيب! فكيف نقبره!"

رد الشيخ بنفس اللهجة:

"الإنسان روح. وقد ماتت روح ابني فحقّ لي دفنه! أما جسده فسيرجع إلى التراب الذي أنشئ منه إن لم يكن اليوم فغداً."

هكذا دفن عبد القهار عبد السميع قبل أن يموت بتسعة عشر عاماً.

بين الجنازتين

صبيحة يوم جنازته الأولى اختفى عبد القهار عبد السميع في مدينة س الساحلية وانقطعت أخباره. بعد سنتين حكى ابن عمه عبد القدرس أنه قد رآه يعمل على صندوق بوفيه كلية الآداب بجامعة دمشق. فحذره والده من ذكر اسم ابن عمه مرة أخرى. ومنذ ذلك الوقت بدا واضحاً أن الأسرة صارت تعتبر عبد القهار ميتاً بالفعل.

لكن عبد القهار لم يتوقف عن تذكير أسرته بأنه ما يزال حياً. فبعد خمس سنوات من دفنه لمع نجمه فجأةً في الصحافة اللبنانية إثر ظهور سلسلة من الأبحاث باسمه حول"المسألة الدينية والمشروع الثوري في الشرق". وقد أحدثت أبحاثه هذه سلسلةً من ردود الفعل وصل بعضها حدَّ التهديد العلني بالقتل. غير أن المقاومة الفلسطينية شملته برعايتها وأعطته الفرصة لأن يعبر عن طروحاته الساخنة دون خوف. لكن بعض المنظمات نفرت منه بعد أن أصدر دراسة هامة أثبت فيها بأسلوب تحليلي فريد بنقائه ووضوحه أن بعض القيادات الثورية العربية ينطبق عليها وصف لينين لبعض القيادات الثورية في روسيا القيصرية. فهي تشبه"الفجل. حمراء من الخارج بيضاء من الداخل".

مع ذلك ظل نجم عبد القهار في الصعود. وبدأ يظهر في صور اللقاءات الرسمية التي يجريها أحد قادة المنظمات الفلسطينية اليسارية. وقيل يومها إنه الكادر الثقافي رقم واحد في تلك المنظمة.

لكن حصار الصهاينة لمدينة بيروت الذي انتهى بخروج المقاومة منها، أطفأ عبد القهار فقرر العودة إلى مدينته الساحلية الصغيرة برفقة زوجته وابنته ريم ليتفرّغ لبحوثه.

استقبل أهل مدينة س الأستاذ عبد القهار استقبال الأبطال. إلا أن عائلته تجاهلته تماماً – عدا ابن عمه حازم المنبوذ من الأسرة أيضاً –.

كان الشيخ أحمد قد علم – من حيث لا ندري – بنبأ عودة ابنه عبد القهار فجمع وجهاء العائلة وأبلغهم إرادته بصوت لا يقبل الجدل:

"تعلمون أن الله قد استردّ أمانته من ابننا عبد القهار قبل خمسة عشر عاماً. وقد دفنّاه معاً. أما حفنة التراب القادمة إلى المدينة غداً أو بعد غد، فيحظر على الجميع الاحتكاك بها أو التواجد معها في نفس المكان إلى أن يحين وقت دفنها و"يفعل ربك أمراً كان مقضياً". صدق الله العظيم."

الجنازة الثانية

عندما وصل نبأ موت عبد القهار إلى بيت أبيه كان والده الشيخ يتناول طعام الفطور. أعاد اللقمة إلى الطبق ثم قال بعد أن أطرق قليلاً:

"إنا لله وإنا إليه راجعون وله الحمد".

بعد دقائق اجتمع الشيخ في المجلس مع أولاده ووزع عليهم المهمات بهدوء:

"عبد الإله وعبد الجبار لإحضار الجثة إلى هنا فوراً. عبد اللطيف للهواتف والبرقيات وعبد الواحد يبقى معي الطوارئ"

لم توافق سميعة على نقل الجثة إلى بيت الشيخ مطلقاً، فأخذت تدق صدرها مولولةً وقد تعددت مجاري المع على خديها:

"موتُوه طقيق! وجايين تاخدوه! تقتلوا القتيل وجايين تحملوا نعشه!"

إلا أن عبد الإله وعبد الجبار تمكنا من نقل الجثة بسرعة بواسطة سيارة إسعاف عسكرية أرسلها ابن العم عبد الصمد مع مجموعة من عناصره، ولم يكن بمقدور سميعة إلا أن تختار بين البقاء في البيت أو الذهاب مع جثة زوجها, ففضلت الذهاب. قبيل العصر كانت إرادة الشيخ أحمد قد وصلت إلى دمشق وحلب واللاذقية وحمص والحسكة والرقة وبانياس ولندن وكوبنهاغن وهامبورغ. وقد بدأ وصول الناس قبل مغيب الشمس.

بعد العشاء وصلت برقية من ابن الأخ الصغير سليمان الذي يملك مخزناً للعاب الأطفال في كوبنهاغن يعتذر فيها عن الحضور لعدم وجود طائرة إلى دمشق إلا بعد يومين.

خلال الليل تمَّ تأمين شاحنة من ألواح الخشب عن طريق واحد من العائلة يشغل منصباً كبيراً في معمل الأخشاب. وقبيل طلوع الفجر كانت الأخشاب قد تحوّلت إلى منصة عالية تسدّ طرف الشارع الرئيسي من جهة البحر، كما ملئ الشارع لمسافة ألف متر بعدد لا يحصى من مختلف أنواع الكراسي، لا يعلم إلا الله من أين جاءت.

كان عبد الإله يشرف على العمل بحماس لا يليق بالمناسبة. وقد دهش كثيراً عندما اكتشف أن والده الشيخ أحمد كان يشتغل بيده مع

العمال في بناء المنصة طوال الليل. وعندما أراد التعبير عن استغرابه زجره والده قائلاً:

"عاش كما أراد. لكنه سيدفن كما أريد. ونحن ندفن بشكل لائق عندما نموت"

في التاسعة صباحاً وصلت برقية من ابن العم عبد الستار يعتذر فيها عن الحضور لأن طائرته القادمة من هامبورغ قد اختطفت وهبطت اضطرارياً في مطار بودابست. وبعد دقائق وصل ابن العم عبد المجير المقيم في لندن منذ ثلاثين عاماً فأمر الشيخ أبناءه المباشرة بإجراءات الدفن.

عندما وصل الأمر إلى عبد الإله كان يتدفق من مكبرات الصوت الموزعة على جوانب المنصة صوت عذب يرتل آيات من سورة"النحل"، فمدّ يده بسرعة لإطفاء المسجلة لكن يداً أخرى أمسكت يده:

"ما بك؟ مجنون! انتظر حتى يقول المقرئ صدق الله العظيم"

ولم يطل الانتظار.

حاول رفاق عبد القهار إقناع والده بأن يعطيهم كلمة في حفل التأبين لكنه رفض بشكل قطعي وخيَّرهم بين البقاء صامتين أو الذهاب مشكورين. لكن الشباب قرروا البقاء وعدم الصمت بالرغم من عناصر ابن العم التي طوّقت نهاية الشارع المفتوحة.

علا التكبير واختلطت الولولة بصوت الرصاص عندما أُخرج تابوت عبد القهار ليوضع أمام المنصة. وجرى الدمع من عيون الرجال كما جرى من عيون النساء. فقد كان عبد القهار رجلاً محبوباً ومحترماً من قبل الجميع.

أمسك عريف الحفل الميكروفون ومال معه متوجعاً حتى أوشك أن يقع. ثم صرخ بأبياتٍ للجواهري مطلعها :

رثاؤك ما أشقّ على لساني ورزؤك ما أشدّ على جناني

وكيف يطيق عن ألمٍ بياناً ثكولٌ شلَّ منه الأصغران

لا شك أنكم قد لاحظتم أنني لم أعرفكم ببعض الشخصيات التي شاركت في أحداث القصة، ولا شك أنكم لاحظتم أيضاً أني لم أحدد ملامح بعض الشخصيات الأخرى. وهذا كله مقصود طبعاً. فليس معقولاً أن أضيع وقتكم بالحديث عن التفاهات أو في وصف أنف رجل لا ملامح له!

خذوا عريف الحفل هذا على سبيل المثال. إنه مجرد طنجرة عادية. ترن إذا طرقناها وتتدحرج إذا رفسناها لكنها تبقى على حالها إلى الأبد إذا لم يتحرش بها أحد.

لذا لن أعرّفكم عليه أبداً. لكنه من واجبي تجاه بطل قصتي أن أخبركم أنّ عبد القهار كان يحتقر هذا الرجل بشكل خاص وكان يسميه"المخطة".

لا أستطيع أن أجزم فيما إذا كان الأمر مرتباً أم لا .. لكنه حقيقة. فجميع الأشخاص الذين سُمح لهم بإلقاء الكلمات في حفل تأبين عبد القهار عبد السميع كانوا لا يطيقونه حياً. وليس من داعٍ للقول إنه كان يحتقرهم بدوره. وربما كان هذا أحد أسباب الأمر الخارق للعادة الذي سيقع بعد لحظات.

في بداية الحفل عندما كان أحد السياسيين يعدّد مناقب المناضل عبد القهار عبد السميع، سمع الجالسون في الصف الأول صرير خشب مكتوم، فظنوا أنه يَصدر عن المنصة التي رُكّبت على عجل. لكنهم عادوا فسمعوا نفس الصوت بينما كان شاعر العائلة عبد المتعال عبد السميع يلقي قصيدة نظمها خصيصاً لتأبين ابن عمه:

تهاوى البدر واربدّت سمانا	وأي نجومنا كالبدر شانا
ألا ليت الملمات جميعاً	أتتنا حين نعيك قد أتانا
أبا ريم رفيق الحق ذكراً	فمن للحق وقت المعمعانا

بعد كلمة"المعمعانا" سُمعت طرقة قوية على جدار التابوت فانتهز رفاق عبد القهار صمت الشاعر وصاروا يهتفون:"المجد لشهيد الفقراء""بالروح بالدم سنكمل المشوار".

عفواً سأخرجكم من المشهد قليلاً لأعرفكم على شخصية ستلعب دور الصاعق في تفجير اللحظات القادمة.

(عبد الرحيم عبد السميع. أربعيني. يعمل مدرساً لمادة اللغة الإنكليزية في ثانويات المدينة. في شبابه كان من ألمع شباب العائلة. أرسل إلى جامعة كامبردج للحصول على دكتوراة في نظرية الأدب، لكنه طرد منها لأنه قلّل الأدب مع الدكتور المشرف على رسالته. متزوج وله أربعة أولاد. مغرور بشكل غير طبيعي ومهووس باستعراض معارفه.)

تقدَّم عبد الرحيم من ابن عمه عبد المجير، عانقه طويلاً ثم قال بلهجة إنجليزية قحة يختلط فيها الجد بالمزاح:

Truly pleased to meet you old fellow[٦]

رد ابن العم قائلاً بشيء من الحرج:

"وأنا مشتاق لك أكثر والله العظيم!"

همس عبد الرحيم في أذن عبد المجير أن الشيخ يطلب منه إلقاء كلمة أقارب الفقيد في المهجر، فأعرب عن سروره لهذا الشرف العظيم. عندها همس عبد الرحيم قائلاً لابن عمه باللغة الإنكليزية:

You deliver the speech in English and I translate it into Arabic. O.K.?[7]

---

[٦] سعيد بلقائك حقاً أيها الصاحب العتيق.

[٧] أنت تلقي الخطاب بالانجليزية وأنا أترجمه الى العربية، هل أنت موفق؟

فوجئ عبد المجير بطلب ابن عمه. قال وقد احمرّت أذناه من الحرج:

"بس أنا بعرف أحكي عربي مليح!"

هز عبد الرحمن رأسه باستخفاف قائلاً:

"يا زلمة. أنت بتعرف، بس الناس ما بيعرفوا أنك بتعرف. ثانياً الخطاب بالإنكليزي غير طعم وأوجَه قدام الناس منشان الشيخ وسمعة العيلة. وَلَوّ!"

صعد عريف الحفل المنصة مرة أخرى. زعق في وجوه الحاضرين ملوحاً بيديه في وجه السماء:

تعسر الصبح واستعصت ولادته حتى تشابكت الأنوار والظلم

عود الرجال بكفّ الخطب يعجمه كالمندل الرطب يذكر حين يضطرم

من خلف البحار، من بلاد الإنكليز، جاء ليشاركنا المصاب. مع كلمة أقارب الفقيد في المهجر. يلقيها الأستاذ رجل الأعمال العالمي المعروف عبد المجير عبد السميع ويترجمها إلى العربية الأستاذ المحترم ابن العم عبد الرحيم عبد السميع.

تقدم عبد المجير نحو الميكروفون بحزن وارتباك يتبعه عبد الرحيم عبد السميع الأجلح المدعبل كالبطيخة. تنحنح عبد المجير فتنحنح عبد الرحيم. لعق عبد المجير وجوه الحاضرين بنظرة عجلى ثم توقف عند ابن عمه وقال:

Reverent uncle Sheikh Ahmad Abdulsamii

Dear brothers, ladies and gentlemen.

اقترب عبد الرحيم من الميكروفون متنحنحاً. قال:

"العم المبجّل حضرة الشيخ العلامة أحمد عبد السميع. الأخوة الأعزاء. سيداتي وسادتي".

Words betray me in this tragic moment

"تخونني الكلمات في هذه اللحظات العصيبة"

All languages of the world are unable...

ولوَلَ عبد الرحيم في الميكروفون:

"تعجز كل لغات العالم..."

هنا بدأ التابوت يتحرك على المنصة وعلا صرير خشبه المكتوم. فتراجع الجميع مذعورين. وفجأةً انقذف غطاء التابوت في السماء كما لو أن قنبلة هائلة قد انفجرت في داخله. ومن قلب الدخان برز عبد القهار عبد السميع واقفاً في كفنه الأبيض وفي صدره فجوة حمراء. نظر إلى الأهل وإلى الخطباء بعينين تنزفان دماً. وفي حمأة الذهول الذي شل الجميع مزّق كفنه واختفى كما لو أن الأرض قد انشقت وابتلعته!

دمشق آب – أيلول ١٩٨٦

حماريات[8]

١ – عبيدو في المدينة

بعقال مكحوت وشملة معرّقة حائلة اللون وقمباز مهترئ تحت إبطيه سروال من أكياس الخام وشاروخ بلون التراب، وجَدَ عبيدو نفسه في المدينة.

في المستشفى سأله الطبيب عما جرى لسليمان الأبرش قال:

"أفندم سلايم من دايم السعادة، على ذمتي..."

قاطعه الطبيب بلهجة متعالية:

"بلا مقدمات... قل لي إيش صار بالضبط؟"

ابتلع عبيدو المحمود لعابه. قال منتقياً كلماته بحرص:

"والله يا جناب الحكيم كنا نعمّر رعش الحاكورة في قليعة الشير.."

قاطعه الطبيب مرة أخرى:

---

[8] من مجموعة "قيامة عبد القهار عبد السميع" صدرت عن دار الأهالي بدمشق ١٩٨٨

"بلا مقدمات! قلت لك احكِ بلا مقدمات! كيف انفَجَّ رأس المريض؟"

ابتلع عبيدو لعابه مرة أخرى كما احمرت أذناه من شدة الحرج:

"جاييك بالكلام يا سيدنا. كان سليمان ينقر صخرة طلعت معنا بالقليعة حتى ندكّها بالبارود، بسلامة فهمك، ونقوّصها. كان عم يحكي معي مثل ما عم أحكي معك ويا غافل إلك الله. سمعت شهقة,, التفتّ فشفته يقلز عن رأس الصخرة... وربك ستَر لأن الجريدة بقيت في النقر. فلو وقعت عليه كانت حياتك الدايمة. ركضت لعنده فشفت الدم من رأسه يقول لك خذ! وهو مبطوح لا من فمه ولا كمه. فقمطته بقميصي وجبته لهون..

أنهى الطبيب الفحوصات العامة، من دَسٍّ مفاصل وقياس ضغط وخلافه، ثم أمر الممرض بإعطاء المريض أبرة بالعضل ونقله إلى القلبية. أخيراً خرج الطبيب من غرفة الأبرش فتبعه عبيدو بوجهه الطولاني الضامر الحزين. بعد أربع خطوات استوقفه يريد أن يسأله عن حال صاحبه. لم ينتظر الطبيب السؤال. قال دون أن يقف:

"جلطة. صاحبك طلع معه جلطة. الله ستره. ما فيك تشوفه قبل يومين، بقا اطلع لضيعتك. مليح منك أنك وصلته إلنا بسرعة"

ذهب عبيدو إلى الكراج مباشرةً. لكن سائق ميكرو الضيعة قال إنه لن يتحرك قبل مضي ساعة على الأقل. ولكي يخفف وقع كلامه عليه قال مشيراً إلى يديه الفارغتين:

"معقول ما في شي يلزمك من المدينة؟"

تذكر عبيدو أنه بحاجة إلى قظمة ورفش. وهاهو ذا يسير باتجاه المحل الذي أرشده إليه السائق. كان يفكر بالمسكين الأبرش. لذا أخطأ ودخل محلاً مليئاً بالعلب تفوح منها رائحة تشبه رائحة المستشفى. لم ينتبه عبيدو للأمر لأنه لم يسبق له أن دخل صيدلية في المرات الثلاث التي نزل فيها إلى المدينة. لذا لم يتردد لعلمه أن السائق يعرف المدينة خيراً منه.

استقبله رجل حليق الذقن يرتدي مريولاً أبيض.

"نعم يا عمّ"

قال عبيدو بشيء من الارتباك:

"عندكم قظامي ورفوش؟"

نقز الرجل الحليق. قال بحدة:

"نعم إيش تريد؟"

قال عبيدو وقد ازداد ارتباكه"عندك قظامي ورفوش؟"

احتقن وجه الصيدلاني بالدم. مس وجه عبيدو بنظرة متفحصة ثم قال باستخفاف ولؤم:

"لا، ما عندي قظامي ورفوش، عندي حمير!"

نقز عبيدو. أدرك أنه أخطأ المحل وأيقن أن الرجل يسخر منه. فنظر إلى الصيدلاني بخبث وقال له بطلاقة وسرعة بديهة:

"مبروك عليك يا عم.. بضاعتك نافقة حتى ما بقي غيرك!"

ثم أعطاه ظهره وخرج.

٢ – بن في العلف

لم تجد نخلة أحداً في الحارة إلا ابن جيرانهم عبود الذي عاد من حرب حزيران منذ ثلاثة أيام، فصبَّحت عليه ثم ابتلعت ريقها وقالت بتلاطف شديد:

"عين عيني أنت. قم حط هالطحنة على ظهر هالحمار. صارت الدنيا الظهر ولازم أطحن وأعجن وأخبز قبل رجوع عمك والأولاد من الحصيدة.

دخيلك ما تواخذني. بعرف أنك تعبان من الحرب. الله يعطيك الصحة والعافية. بس ما في حدا بالحارة غيرك. قم عين عمتك قم".

همس لنفسه: "تعبان من الحرب". كان يعلم أنها لم تقصد الإساءة إليه وهذا ما آلمه أكثر. فالناس يتصورون أنه حارب الإسرائيليين.

ردت نخلة شوال الحنطة على ظهر عبود ثم خرجت مسرعةً لتحضر الحمار. أسند عبود الشوال إلى طرف المصطبة وعندما تأخرت نخلة ترك الشوال وذهب خلفها.

كان الحمار مطروحاً في مربطه ونخلة قربه تشتمه وتضربه بعود سنديان يابس.

رأت عبود يقترب محنقاً فقالت:

"يقطعه الله. انطرحَ طرحة واحدة!"

شد عبود بقايا الأعشاب الموجودة في معلف الحمار فوقعت في يده بضع حبات من البن الأخضر. حملق عبود في حبات البن متسائلاً:

"العمى! من أين جاء البن لمعلف الجحش!"

فتحت نخلة فمها على مصراعيه فبانت لثتها الملتهبة وأسنانها الخربة، ثم صفقت باندهاش:"يا قرد! ليش البن بيضرُّه؟!"

نظر الحمار إلى نخلة ثم قلب عينيه كالسكران فانفجرت بالضحك وأخذت تحكي لعبود كيف وصل البن إلى معلف "التختروان".

منذ حوالى سنة اشتغل زوجها مع ثلاثة من أولاده عند "النافعة" في شَقّ الطريق الشرقي. كانوا يعطونهم أربع ليرات ونصف لكل رأس وفوقها حصة تموين رز، سكر، شاي، ملح، ومن جميعه".

ومرةً من المرات طلع لهم كيس فيه حوالي كيلو من البن الأخضر. وبما أنهم لا يشربون القهوة ولا يعرفون تحميصها، مثل كل جيرانهم، فقد ألقوا كيس البن في الطاقة. ومن يومها صارت يد نخلة تضرب فيه كلما مدتها لأخذ كبريتة أو لوح صابون، فتقول بانزعاج:"قرد فيك!".

في ذلك الصباح مدت نخلة يدها إلى الطاقة بحثاً عن كبة الخيطان كي تقوم بترقيع شوال الطحين، فجاءت يدها في كيس البن وفتَقَتْهُ. عندها..."قلت لحالي يا مرحوم الوالدين، كل شيء ينفع آدم، ينفع الحمار. فشلحتُ له الكيس أحسن ما يبقى في خلقتي دايم دوم. قام سكر العكروت!"

ضحك عبود أول مرة منذ أن رجع من الأسر وعندما شبع ضحكاً قال لنخلة:"احمدي ربك أنه ما مات!"

ردت باندهاش:"ليش كثر القهوة بيموّت؟ والله سَمّعة! لكن الله يعين هالموظفين اللي مالهم شغل طول النهار إلا شرب القهوة!"

٣ – حفرة لأخيه

مع تقدمه في السن صار"التختروان" يتفنن في المراوغة ورمي الأحمال، وكثرت الشكاوى منه حتى لم يعد أحد يجرؤ على ركوبه إلا عبيدو شخصياً.

لم يكن عبيدو يحب أن يستخدم الناس حماره"التختروان" دون إذن منه، لذا لم تزعجه الشكاوى أبداً. بل كان يربت على عنقه من وقت لآخر قائلاً:"خلص، اعتبر نفسك متفرّغ لشؤون الكيف...!"

وقد أعجبه لتفرغ لشؤون الكيف، على ما يبدو، حتى نسي نفسه اليوم ورمى صاحبه الذي رباه جحيشاً صغيراً...!

فبعد ظهر اليوم كان عبيدو عائداً من قليعة الوادي وقد هدّه التعب. لذا لم يملك إلا أن يصرخ عندما رأى حماره أسفل القرية يشمشم حمارة بيت الدو.

"أهلا بهالطلّة أهلا.. أهلا بهالعين الكحلا. لك جيت والله جابك!"

ثم قطع عليه تفرّغه واعتلاه.

مسح عبيدو عرقه بطرف قمبازه مبتسماً لحظّه الطيب الذي جلب الحمار ليوفر عليه هذه الطلعة القاسية. وما أن أبعد طرف القمباز عن وجهه حتى رأى الحمار يحشر نفسه تحت أول شجيرة سنديان واطئة. صرخ: "هيش ولاه!"

إلاّ أن التختروان لم يستجب للأمر مما جعل أغصان السنديانة تكنس عبيدو عن ظهره وتشلحه على قفاه.

تدحرج عبيدو قليلاً ثم استقرّ منسطحاً فاقد الوعي في عرض الطريق.

دخل عبيدو بيته مطلقاً أقذع الشتائم. رفس علبة سمن فارغة اعترضت سبيله ثم صرخ في وجه زوجته التي كانت تبسمل وتستعيذ بالله من الشياطين.

"وحقّ الشيخ حيدر الضهر والأئمة العشر وكل عيد ونذر، بدّي أعدمه!"

أخرجت نخلة يديها من العجين وهي تحملق في زوجها المعفّر بالتراب. تحوَّلَ الاستغراب إلى ابتسامة ثم تحولت الابتسامة إلى ضحك.. فقهقهة. دقت صدرها بيديها الملوثتين بالعجين:

"يقطعك الله... شو عامل بحالك؟"

صرخ عبيدو وقد سيطر عليه الهياج من جديد:

"إعدام! ما في كلام. أقسم بشرفي وعروبتي ما بيموت إلاّ إعدام!"

بللت نخلة يديها بالماء وتابعت العجن قائلةً باستخفاف:

"الله لا يردَّك لا أنت ولا هو!"

شاء سوء حظ التختروان أن يرجع إلى البيت قبل أن تخف مواجع صاحبه. فاستقبله عبيدو بلهجة تنضح غلاً وحقداً:

"شرَّفت؟ لا أهلا ولا سهلا بقلافتك يا جحش النحس!" ثم تابع مخاطباً زوجته:

"أنا قلت إعدام، يعني ما في كلام. خلص. رح أدفره عن كتف الشير ودرب السد الما يردّ!"

توصرت نخلة وقالت لزوجها مذبلةً عينيها، باستخفاف:"حدا بيحط عقله بعقل حمار إلا إذا كان مثله؟"

بربر خارجاً:"إعدام. ما في كلام. وحق خالق الخلق ومقسِّم الرزق رح أعدمه!"

ثم ساق الحمار أمامه ومضى مشرّقاً:



عند الغروب رجع التختروان ولم يرجع عبيدو. وما أن لاحظت نخلة ذلك حتى ذهبت لبيت ابنها البكر وقالت له:

"هالمجنون أبوك أخذ الحمار ليعدمه، فرجع الحمار وهو ما رجع! قم شوفه أكيد عامل له فتكه!"

استنفر أحمد أخوته محمد وعلي وحيدر. وعندما اقتربوا من كتف الشير يحملون مصباح اللوكس وظلالهم تتراكض حولهم، سمعوا أنين والدهم أسفل الانهدام الصخري.

رأت نخلة أولادها يقتربون من البيت حاملين والدهم مغطّىً بدمه، فدقت صدرها صارخةً بلوعة:

"ويلي أنا الويلي! وا عبيدوه..! ويلي أنا الويلي! اللّه يقطع الجحاش ويوم الجحاش. ما قلت لك لا تحط راسك براسه!"

ضمَّد حسينو المجبِّر جراح عبيدو بعد أن عقّمها بالكحول ثم قال له:

"حظك من السما واللّه يا بو محمد. مليح أنك وقعت على البطمة بالأول. والا كنت تبقَّشتْ. احمد ربَّك ما في كسر."

واصلَ عبيدو التوَجُّع والأخأخة بعد أن صمت لسماع حديث حسينو.

"آخ يا راسي. آخ يا رجلي. آخ يا أمي. آخ يا ضهري.. آخ.."

قالت له زوجته بحنان يخالطه شيء من شماتة:

"بعلمي أنك رحت تعدمه فقام أعدمك يا ضو عيني! شو ضحك عليك؟"

رد عبيدو وقد رقّ صوته كما لو أنه يوشك على البكاء:

"آخ يا نخلة. وقّفت الحمار على كتف الشير آخ.. ورجعت كم خطوة.. آخ.. حتى أدفره بعزم.. آخ.. فشافني العكروت.. وانزاح من قدّامي.. آخ.. ومن كثر العزم ما قدرت هدّي.. فوقعت!"

قالت نخلة وقد اطمأنت أكثر لحال زوجها:

"يقطعك الله كيف جاك قلب تدفره وهو رفيق عمرك؟!"

ردّ بوهن:

"ما بعرف.. ساعة نحس!"

قالت نخلة:

"والله صدَق من قال: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها!"

كومجي الأحلام[٩]

"شغلة عالبغلة"

ذلك هو عكاز حديثه الذي لا يتغير: جملة من كلمتين يقولها بطرق وإيقاعات مختلفة فتأخذ دلالات ومعانٍ متباينة تتراوح بين الشتم المقذع والإعجاب الشديد.

وضع سليم أبو علي الملقب أبو السل صينية الفراريج المشوية بالفرن في المكان المخصص لها على الطاولة ثم سحب كرسيه وجلس متمتماً بابتهاج:"شغلة عالبغلة".

سكب أبو السل كؤوس العرق وشننها ثم وزعها على الضيوف بدءاً من اليمين. رفع كأسه بحركة احتفالية رصينة ثم أفرغ نصف الكأس على الأرض قائلاً:

"وللأرض من كأس الكرام نصيب"

تناقرت الكؤوس ثم عادت إليه بكعوب بيضاء، فنحّاها جانباً. تناول خمسة كؤوس نظيفة من صينية بجواره وملأها.

لم يقل تفضلوا، كما هي العادة، ولم يبادر أي من الضيوف بمدّ يده لعلمهم أن أبو السل يتمتع بلعب دور"المعزِّب" وتلك عادة اكتسبها

---

[٩] من (مجموعة قيامة عبد القهار عبد السميع) صدرت لأول مرة عن دار الأهالي -دمشق ١٩٨٨

من شباب جبل العرب أثناء خدمته الإلزامية.

سكب الطعام للضيوف ثم لنفسه. رفع كأسه مبتسماً بودّ:

"صحتين وهنا وعافية يا أوادم!"

أطلّ الصمت برأسه قليلاً أثناء كركعة الكؤوس فانبثقت منه أصوات ديوك الجن وغيرها من الهوام التي تكثر خارج المناطق المأهولة. امتدت الأيدي إلى الطعام فتراجعت أنفاس الليل الريفي أمام أصوات المضغ والنهش والبلع وطقطقة الشوَك والملاعق والسكاكين في الصحون.

أخيراً رفع الطعام ولم تترك على المائدة إلا صحون المازة. تنحنح أبو السل بعد أن أطلق نفساً من سيجارته اللفّ:

"شغلة هالبغلة! صدق من قال يا خال إن الجنة بلا ناس مابتنداس. قسماً عظماً مالكم عليّ يمين ما بصدّق أي متى يجي الخميس.. مع أن الزباين أكثر من الهمّ على القاب. هاتوا سمّعونا حكاياتكم الطيبة يا أوادم طيَّبَ الله عيشكم!"

مسح الأستاذ عبد الحميد – الضيف الدائم على مائدة الخميس – شفتيه الرقيقتين كعادته عندما يريد أن يحكي:

"والله يا أبو السل هالدنيا مافيها لا أبقى ولا أحلى من الكلمة الطيبة وها الشي ما يعرفه غير الطيبين شرواك".

قال أبو السل بتواضع أصيل لاوياً عنقه كطفل محرَج:"أستغفر

اللهْ! خجّلتني يا أستاذ"

"اسنع يا أبو السل. سمعت لك حكاية ظريفة وفيها عبرة..."

مال أبو السل بكليته نحو الأستاذ قائلاً بابتهاج:

"شغلة عالبغلة!"

أخذ الأستاذ وضعية الحكواتي وتابع الحديث بلغة أقرب إلى الفصحى:

"يحكى يا مولانا أن أول مخلوق اكتشف الخمر كان واحداً من إخواننا المصريين... أيام زمان... قبل الفراعنة. ففي سنةٍ عجفاء محروقة الوالدين، نشف النيل، فغاض النبع وجف الضرعٍ وصارت حالة الناس بالويل. ذبلت عريشة صاحبنا فانقطع قلبه رعباً. كان الناس يموتون من العطش لأن الينابيع تعطي ماء قليلاً يتصارع الناس عليه فيحوّلونه إلى وحل لا يُشرب. وحتى لا تموت العريشة جاء صاحبنا وذبح على عرقها خشف غزال مرقّش يأخذ العقل رباه في بيته منذ أن كان فلواً صغيراً. عاشت العريشة أياماً بدم الغزال وعاش صاحبنا على لحمه أياماً أخرى. وذات يوم خرج الرجل لتفقُّد الأفخاخ التي نصبها فوجد أن نمراً وقع في واحد منها. وبجهد جهيد استطاع صاحبنا أن يربط النمر وينقله بمساعدة جيرانه ليذبحه على عرق العريشة، فانتعشت من جديد.

استمر الجفاف وازداد الحر شدة وذبلت أوراق العريشة مرة أخرى فخرج صاحبنا يبحث عما يطيل عمرها لكنه عاد خائباً عند

العشاء فقرر أن يذبح قرده الذي يسليه لينقذها. عاشت العريشة أياماً بدم القرد. وقبل أن تذبل مرة أخرى عثر الرجل على خنزير بري في أحد أفخاخه فذبحه. وبعد أيام جاء المطر.

وبهذا الشكل يا مولانا ظهر العنب الأحمر. ومن يومها صار من يشرب كأساً واحداً من الخمر يشعر أنه جميل وبهي مثل خشف غزال سارح في الغابات. ومن يشرب كأسين يصير قوياً جريئاً مثل النمر. ومن يشرب ثلاث كؤوس يصبح أخرق مضحكاً كالقرد. أما من يشرب أربع كؤوس فيصبح، حاشاكم، مقرفاً عديم الإحساس كالخنزير."

صاح أبو السل بانتشاء:

"شغلة عالبغلة يا أستاذ... شغلة عالبغلة!"

تنحنح ضيف آخر كما لو أنه يستأذن في الحديث:

"لا أدري إذا سمعتم قصة متاع ضيعة المستورة؟"

لم يبد أحد من الحضور استجابةً توحي بأنه يعرف الحكاية، فانبرى الرجل يحكي:

"هذا يا سيدنا، سيدنا وسيك الله، واحد جاءه ولد بعد أن طفَّ الأربعين وقطع أمله من الخلفة فرباه كل شبر بنذر. إذا عطس.. اسم الله! وإذا تفشكل يا خضر! وإذا بكى بكت الدنيا! وكان المحروس في حالة انبساط. فإلى مئة جهنم الدنيا وأهلها.

المهم يا مولانا، الجدي لا يظل جدياً. كبر المحروس وقام عليه أبو عباس. فصار المدلل ينطّ على الحيطان! قالوا زوّجوه واستروه وارتاحوا منه وريّحوه.

فزوّجوه بنت حلال مغنّجة مثله لا رحنا ولا جينا. فحطّت دابها داب هالختيار حتى مرمرت حياته وذوبت صحته. يوم من الأيام جاء هالختيار يعاتب كنّته. فطلعت بوجهه مثل حية التبن والعياذ بالله! هددها بتطليقها من ابنه وردها لبيت أهاها. فقالت له: "نجوم السما أقرب لك يا ختيار النحس يا محنّن! " وحلفت بالله والأنبياء أنها ستقول أمام المحكمة أنه طلب منها الفاينة إذا تحلفس أو آتى بحركة!"

طق رأس الختيار. مسك الجفت وقوّسها! المهم شرّفَ المحروس. ولما شاف امرأته هجم على والده مثل الكلب الكلبان يسبُّه ويبهدله. فقال له: خذ يا محروق الوالدين! وطخّه! وبعدها راح سلَّم حاله للشرطة."

فرك أبو السل ذقنه بإبهامه وسبابته مرتين على التوالي ثم قال بوقار وقد ارتسمت تجاعيد عميقة على جبينه العريض:

"شغلة عالبغلة!"



كان أبو السل يعشق السمر ويهوى سماع الحكايات والأشعار. وفي سبيل ذلك كان مستعداً لتقديم كل ما تشتهيه الأنفس في بيته الذي

بناه بعد عودته من دبي فوق قطعة أرض صغيرة إلى جانب الطريق بين مدينتي"س" و"هـ" الساحليتين. وقد ازداد تعلقه بهذه العادة لدرجة أنه فضّلها على زوجته عندما فرضت عليه أن يختار بين واحدة منهما.

كان البيت يشبه صاحبه إلى حد بعيد. فإذا نظرت إليه من جهة الطريق بدا لك مجرد محل كومجي عادي بل ومنفّر ببابه الملطّخ بالشحوم والأقذار وآرمته المكتوبة بخط سيء:

(كومجي الأحلام لصاحبه سليم أبو علي – أبو السل).

أما إذا نظرت إليه من الخلف فسترى جداراً مطلياً بدهانٍ أبيض تزينه رسوم ساذجة بهيجة يتوسطه باب حديدي تكسر برودته رسوم دافئة لطيور وأزهار غريبة لا وجود لها إلا في رأس من رسمها. من فوق الجدار تطل شجرة صنوبر كما لو أنها قبّعة خضراء يرتديها البيت. فإذا دخلت وجدت نفسك في أرض دار فسيحة تتوسطها بحرة صغيرة تخرخر. وعلى جوانب الجدران المزينة بالرسوم تنتصب شجيرات الورد البلدي والياسمين والبوكسيا والفتنة والقرطاسيا. في صدر أرض الدار ثمة درج بدرابزون حديد أصفر تنتشر على جانبي درجاته أحواض الباغونيا والحبق وأم كلثوم وحُسن يوسف وحلق العروس والصباريات وحشائش الفيء بأنواعها.

في أعلى الدرج ثمة شرفات يتوسطها باب خشبي بدرفتين. خلف ذلك الباب كان أبو السل الكومجي يعيش حياته الثانية مساء كل يوم

خميس.

كان ينتقي جاساءه بعناية فائقة ولو كان الأمر بيده لانتقى زبائنه أيضاً. فقد علّق في صدر دكانه لوحةً مبروزة مكتوبة بالخط الكوفي تُقرأ عن بعد أمتار:

إذا جلس الثقيل إليك يوماً   أتتك عقوبةٌ من كل بابِ
فهل لك يا ثقيل إلى خصالٍ   تنال ببعضها كرم المآب
إلى مالي فتأخذه جميعاً   أجلْ لديك من ماء السحاب
وتنتف لحيتي وتدقّ أنفي   وما في فيَّ من ضرسٍ وناب
على ألاّ أراك ولا تراني   مقاطعةً إلى يوم الحساب

سكب أبو السل طقماً جديداً من كؤوس العرق. ناول الأستاذ الكأس الأول قائلاً:

"هات لك نادرة ظريفة مثل الأولى اللّه يطوّل عمرك يا أستاذ!"

قال الأستاذ وقد تقمّصته شخصية الحكواتي:

"سمعاً ومحبة! سمعت لك حكاية عن طير لا يغرّد إلا مرة واحدة طوال حياته. وقصته أعجب من العجب. فما أن يخرج من تحت جناح أمه حتى يبدأ البحث عن شجرة كلها شوك تعجبه. يحطّ على أحد أغصانها ويغرد تغريداً حلواً عجيباً يأخذ القلب من كثرة رقته وعذوبته. وبينما هو يغرد يضغط صدره على إحدى الأشواك الحادة

الطويلة فتدخل فيه وينزف ببطء، لكنه يواصل الغناء.. ومع اقتراب الموت منه تصبح أغنيته أكثر عذوبة وجمالاً وروعة من أية أغنية أخرى على الأرض.

وهكذا يا صاحبي يدفع ذلك العصفور حياته مقابل أغنية واحدة لكن الحكاية تقول إن الأرض تتوقف عن الدوران لتسمع تلك الأغنية وأن الله يسمعها في سماواته فيبتسم."

صاح أبو السل وقد أغلق عينيه منتشياً:

"اللّه ... اللّه! شغلة عالبغلة يا أستاذ!"

صاح أبو السل"فشتوك!" وقد ارتسمت على وجهه الخشن ابتسامة طفولية طيبة. فحلّق عصفور فاحم السواد في فضاء الغرفة ثم حطّ على يده الممدودة.

سكب أبو السل بعض الماء في غطاء زجاجة العرق ووضعه أمام الهزار قائلاً:

"كاسك يا أفندي!"

نطّ الهزار عن يده وأخذ يشرب الماء من الغطاء.

قال أبو السل بشقاوة طفولية:

"بعد لحظتين يسكر. إي يا أزعر... صرت سكرجي ولاه"

لم يفاجأ الضيوف بهذا الشيء الذي يشبه السحر لأن الثلاثة

منهم رأوه مراراً، أما الرابع فقد كان مستعداً لما هو أكثر بعد كل ما سمعه من أهالي الضياع المجاورة وسائقي الخط عن أبو السل وعصفوره الذي يسكر معه.

ونظراً لأن بعض قرائي الأعزاء ليسوا من هؤلاء ولا من أولئك سأروي لهم القصة بإيجاز شديد.



منذ حوالى سنة كان أبو السل يشرب قهوته الصباحية على شرفة الطابق الثاني من بيته. فلفتت انتباهه زقزقة غير طبيعية تصدر عن عش يتدلى على شكل جراب من أحد أغصان الصنوبرة التي بنى بيته بهذا الشكل كرمى لها. نظر إلى العش مراراً ثم قال باتجاهه وهو يهبط الدرج إلى المحل:

"شغلة عالبغلة!"

عندما صعد للغداء لاحظ أبو السل أن الزقزقة ازدادت غرابة كما لو أن الفراخ تستغيث. صعد إلى السطح. تناول خشبة طويلة في رأسها مسمار صدئ معقوف. انبطح. سحب الغصن الذي يتدلى منه العش فرأى أربعة فراخ تزقزق فاتحةً مناقيرها وبينها فرخ آخر ميت. غمغم:

"شغلة عالبغلة! أكيد شي ابن حرام قتل أمها"

انتزع العش من مكانه ونزل. وضع العش على طاولة الطعام، ثم

هبط الدرج قفزاً كما كان يفعل قبل أربعين سنة عندما كان يتأخر عن المدرسة.

ملأ حفنته بالحراقيص من حقل القمح مقابل بيته ثم عاد. وضع الحراقيص تحت كأس شراب عى الطاولة فنطّت قليلاً ثم هدأت. تناول واحداً منها. فرمه قطعاً صغيرة أخذ يلقيها في أفواه الفراخ بواسطة ملقط مفضض صغير تناوله من درج الخزانة.

التهمت العصافير الحراقيص الواحد تلو الآخر غير أنها لم تسكت. تناول أبو السل القطرة التي وصفها الطبيب له لإزالة الاحمرار من عينه اليسرى. سكب محتوياتها في البالوعة. نظفها بالماء والصابون ثم عبأها وأخذ يسقي الفراخ من قطارتها واحداً فآخر.

أخيراً سكتت فأطلق أبو السل تنهيدة ارتياح دافعاً شاربيه الضخمين المفتولين إلى أعلى، ثم مضى إلى المطبخ لتسخين غدائه.

ماتت الهزارات ولم يبق إلا أكثرها هزالاً. كان أبو السل واثقاً أن الفرخ الهزيل سيلحق بأخوته، لكنه لم يتوقف عن العناية به. وأسماه "فشتوك".

و"فشتوك" اسم يُطلق على عصفور البويلة أو الطيُون الذي لا يَكبَر الذبابةَ إلا قليلاً. لكن فشتوك لم يمت. وشيئاً فشيئاً استبدل زغبه الرمادي بريش فاحم السواد. وكم كانت دهشة أبو السل كبيرة عندما رآه يطير في فضاء الغرفة ذات صباح.

لم يكن أبو السل يفتح النافذة المطلة على الطريق العام إلا نادراً. وفي ذلك اليوم فتحها. قال للهزار كما لو أنه يخاطب نداً له:

"إذا كنت ناوي تروح الله معك... شغلة عالبغلة!"

رأى أبو السل الهزار فشتوك وهو ينطلق من النافذة باتجاه حقول الساحل الفسيحة. لكنه فوجئ قبيل الغروب عندما رآه يحط على سطح القفص الذي لم يُغلَق عليه أبداً!

وضع أبو السل قليلاً من طعام الطيور في راحته.فقفز الهزار وحطّ على يده وأخذ ينقر الطعام كما كان يفعل عندما لم يكن قادراً على الطيران.

هكذا أصبح فشتوك الرفيق الدائم له. يحلق حوله.. يحط على كتفه أو يده أو رأسه. وشيئاً فشيئاً ازدادت جرأته حتى صار يحط على أكتاف وأيدي الزبائن أيضاً.

وذات يوم سقاه أبو السل بغطاء زجاجة عرق سهواً فسكر وأخذ يغرّد ويهرّج ويفكح بطريقة تميت من الضحك. ومن يومها غدا كما لو أنه هو روحه التي ترفرف حول الناس وتلامسهم بمودة.

رفع أبو السل رأسه عن المخدة إذ تناهت إليه خبطات شديدة على باب الحديد الخارجي. غمغم:

"شغلة عالبغلة! مين هالدابة اللي عم يرفّس من بخش الضو؟"

دلّى قدميه من السرير متحسساً الشحاطة. حطّ فشتوك على كتفه الأيمن مرفرفاً. أدار رأسه الضخم نحوه والابتسامة تغالب النعاس على وجهه:

"شغلة عالبغلة!"

فرك وجهه براحتيه ثم مشى بخطوات متلجلجة نحو المطبخ ليشرب. أشاح بوجهه عن جلي سهرة البارحة الذي يملأ المجلى. صاح باتجاه الباب:

"طيب!"

توقف الطرق أخيراً. كان يعرف أن الواقف في الخارج زبون معه"بنشرة" ولن يمضي إلى أي مطرح لأن الدنيا يوم جمعة ولأن كومجي الأحلام هو الوحيد على الطريق من هنا ولمسافة عشرين كيلو متراً.

عاود الزبون الطرق من جديد بينما كان أبو السل يرتدي بدلة العمل. قال في سره:

"شغلة عالبغلة! هذا زبون مطبوخ بزنبور الست.!" فتح الباب ببطء متعمّد. قال دون أن ينظر إلى الطارق:

"هون بيت يا حبّاب. سمّي بالرحمن شويّ! شغلة..."

لكنه لم يكمل جملته الشهيرة إذ فوجئ بأن الطارق يحمل على كتفيه نسرين ونصف دزينة من النجوم. لم يقل صباح الخير. قال بصوت أجش مخرخر ينسجم مع ضخامة جسمه وقصر رقبته:

"ساوي لنا هالبنشرة إذا بتريد"

هدر جارور التوتياء ملتفاً على نفسه كاشفاً محتويات محل

كومجي الأحلام دفعة واحدة. انتظر الزبون قرب سيارته المرسيدس مجيء الكومجي لأخذ الدولاب المبنشر. وعندما قطع الأمل أطلق شتيمة نزقة ثم أنزل الدولاب وأخذ يدحرجه نحو المحل.

كان الزبون شخصاً رياضياً من هواة كمال الأجسام على ما يبدو. فهو يمشي مُباعداً يديه كما لو أنه يوشك أن يطير. ذقنه المكرنشة وفكه الضخم يوحيان بالعناد الشديد. أما عيناه فلم يكن من المتيسر رؤيتهما لأنه يرتدي نظارة شمسية رغم أن الشمس لم تشرق إلا منذ لحظات. تناول أبو السل"الَّوِية" لإخراج الجنط من الدولاب فقال له الزبون بنفاد صبر:

"خفّ شوي! رايحين عالشام والدنيا شوب!"

تابع أبو السل عمله بنفس الإيقاع المتكاسل. وبما أنه لم يشعل مولد الكهرباء فقد بدا له الرجل بسبب الظل الساقط شبحاً مفتول العضلات ينوس بين جدارين تتكوم أسفلهما الدواليب المستعملة والأقذار. قال في سره هازئاً:

"شغلة عالبغلة!"

كان أبو السل قد انتهى من إصلاح الدولاب عندما دخل فشتوك مرفرفاً بجناحيه الصغيرين. رسم نصف دائرة حول الزبون ثم حط على كتفه الأيسر. لم ينظر إلى كتفه بل رفع يده اليمنى وضرب الهزار ممتعضاً بكل ما في يده من قوة، فانقذف الهزار عن كتفه وانخبز على الجدار ثم سقط دون حراك.

صرخ أبو السل:

"لك شو عملت؟!"

رد الزبون بلهجة حازمة.

"فكّرته جرادة"

صاح أبو السل بانفعال أشد:

"جرادة! يا مجنون.."

صاح الزبون وقد ازدادت لهجته حزماً:

"انضبّ، واعرف مع مين عم تحكي ولاه! إذا كان يساوي مئة ليرة هاي ميتين! العمى في عيونك!"

هنا مدّ الزبون يده إلى جيبه بنزق. أخرج رزمة نقود. شلح منها مئتي ليرة على الأرض ثم حمل دولاب سيارته وانطلق يزنخر.

بعد لحظات شفّطت سيارة المرسيدس مطلقةً زوبعة من الغبار، بينما كان أبو السل مايزال واقفاً امامه كالصنم.

دبابة ثانية[1]

إلى محمود علي المقاتل الذي مايزال ينتظر

خذها مني يا أخي. من يقول لك إنه لا يخاف ابتعد عنه، فهو إما كذاب، والكذاب ملعون، وإما صادق، والزلمة الذي لا يخاف يخوِّف!

يا مولانا، يومها كافوني أن أكون حماية يمينية لدبابة كاسحة. كنتُ عريساً جديداً وأم دحام كانت في شهرها الثالث. أول ما انطلقت فينا الدبابة خشَّ قلبي فصرت أرى صورة أم دحام مختلطة بالسماء والجبال وكل شيء.. خرجنا من"أم باطنة" باتجاه الغرب إلى الخندق فصرت أمزح من خوفي. قلت لحالي:"أنت أحسن من غيرك يا ولد.. على الأقل أنت شفت الدنيا وأكملت نصف دينك وبذرت البذرة.. وما عاد إلا نسمع الواع ويع.."

أشرفنا على الخندق فنزلت علينا الرمايات المعادية مثل زخ المطر. أصيبت دبابة الحماية الشمالية فقفز قائدها الملازم أحمد ونزل قائداً مكاني ونزلتُ أنا مكان الرامي... ساعتها نسيت خوفي. عبرت دباباتنا الخندق مثل الغزالة. وبعد دقائق دخلنا ضيعة اسمها القحطانية بخمس دبابات هي ما تبقى من سَريَّتنا.

---

[1] من مجموعة (قيامة عبد القهار عبد السميع) صدرت لأول مرة عن دار الأهالي -دمشق ١٩٨٨

نزلنا نستكشف الضيعة فوجدت لك زعرورة نازلة مثل التراب... زعرور أصفر محترم... كل واحدة هاه! قرقشت حتى شبعت وعبيت جيوبي... ولما رجعت لقيت الملازم أحمد ومعه مزودة عسكري كانت معلقة بشجرة بلوط. قال لي:

"هالمزودة يارقيب محمود بقيت معلقة من حرب حزيران حتى اليوم.. أكيد الإسرائيليين ظنوا أنها مفخَّخة حتى ما فتحوها.

حررنا القرية ووزعنا المهمات على التمام... وعند وجه الضوء، يعني حوالى الساعة خمسة...والله يا أخي عدونا ذكي وابن كلب! تعرف أنهم قلَّدوا صوت قائد كتيبتنا، فجاء أمر أن ترمي كل دبابة خمس طلقات على تل الريحان. رفاقي نفَّذوا، أما أنا فما نفّذت. نخزني قلبي والله لأن الملازم نبَّهنا مرتين أن لا نأتي بأي حركة إلا بأمر مباشر منه.

المهم ياسيدي، كشفونا...

عند طلوع الشمس نزلنا من القحطانية إلى السهل الممتد جنوب القنيطرة، فنزلت علينا كتيبة معادية من تل الريحان. أخذنا موقف دفاعي وحطيت لك عيني على منظار التسديد. نيشَنْت على أول دبابة في التشكيل المعادي وقلت: يا من سترت لا تفضح! أصبْتها في برجها وبعيني شفت قائدها يقلب من فتحتها الفوقانية والنار ماهلبة في ثيابه. صحت: "بَخَشْت أُمَّه! الله أكبر!"

الشمس كانت معنا. سددت على ثاني دبابة وفقعتها فما أصبتها.. أصبت قائد دبابتنا لأنه نزل عن مقعده قبل ارتداد المدفع فجاء في صدره. صاح "قتلتَني!"

قلت له: "لا، ما قتلتك. بعدك طيب!"

نزلت الدبابة الإسرائيلية باتجاهنا فأمر الملازم سائق دبابتنا بالتقدم... رد عليه: "موقعنا ممتاز وإصابتنا مليحة"

صاح به: "تقدَّمْ فوراً وإلا رميتك بالمسدس!"

تقدمنا ويا ليتنا ما تقدمنا. فبعد حوالى مئة وخمسين متراً جاءنا صاروخ ودمرنا. رأيته... كأنه مسدَّد إلى عيني. قلت رحنا. يومها كان شاربي أكبر من شاربك... فلبَّت النار فيه واحترق كل القسم الظاهر من وجهي. ومن حلاوة الروح دست على زميلي، الله وكيلك، وقفزت من فوهة الدبابة وقلبت.

ربك سَتَرَ ولم تصبني ولا طلقة من الرشاشات التي كانت ترمي على فتحات الدبابة، بفضل دعاء الوالدة. المهم، ارتميت على الحشيش اليابس فاشتعل وصرت أتقلَّب في النار حتى طفيت ثيابي بقدرة قادر.

أول شيء فكرت به هو الأسر. فلقَّمتُ مسدي وقلت لنفسي: "موتة ولا كانت... ونويت بيني وبين حالي أن أطلق النار على نفسي إذا حاصروني.. فأنا خلقي ضيق لا أطيق الحجز مثلما تعرف.

زحفت بين الأعشاب فسمعت توجعات زميلي ملقّم الدبابة. كان مصاباً بطلقة رشاش في فخذه.. حملته على ظهري وخبأته في لجوة فوقها ديسة تخفيها عن العيون. تابت الزحف فدخلت في كرم العنب. وبينما أنا أزحف وجدت نفسي أمام مخلوق ثاني يزحف مثلي.. أفعى عقد جوز والعياذ بالله.. قلت لها روحي بحالك واتركيني بحالي يا مباركة... فتوقفتْ وظلت تراقبني كما أراقبها حتى غابت عني وغبت عنها.

سال الدم من ركبي وأكواعي. وصار وجهي يهبّ كأنه مدهون بفليفلة مثل سم الهاري. مع ذلك بقيت أزحف حتى وصلت إلى خندقنا. لقيت دبابة النجدة رابضة فيه. سألوني عن رفاقي، قلت لهم ما بقي أحد إلا الملازم أول. ويمكن يكون دخل في الرتل المعادي.. والحقيقة أنه دخل في الرتل المعادي بالفعل لأنه فقد الاتصال. لكنه واحد فحل يعجبك... ناوَرَ بين الدبابات الإسرائيلية فما قدرت ترميه وبعدها التفّ ورجع مثل الطير الطاير.

المهم يا مولانا صرنا مجردين. كانت"مسحرة" هي نقطة التجمع. رحنا لمسحرة. من مسحرة أرجعونا لـ"الحارة". وفي الحارة أعطونا أمراً بالتوجه إلى اللاذقية لاستلام دبابة ثانية.

سافرنا إلى اللاذقية كأننا في عيد.. هذا يغني، وهذا يصفق وهذا يرقص...وكيلك الله كنا نتَوَلّدَن كأن كل واحد منا شربان بطحة عرق.

وصلنا اللاذقية حوالى المغرب. قالوا لنا: الدبابات نزلت طرطوس. وأمرنا بالتواجد هناك في الموقع الساعة سبعة الصبح.

قلت لحالي: يا ولد معك نصف يوم. رُحْ طمئن الأهل. استأجرت موتور ناري من نوع "مشنس" وبعد ساعة ونصف كنا عند الأهل. دبَّ الصوت بالضيعة فمالت بشيبها وشبابها وبناتها وصبيانها على بيتنا حتى ما عاد فيه مطرح قدم... هذا يسألني عن ابنه وهذه تسألني عن رجلها وذاك يسألني عن قريبه كأنني قائد الجبهة! قلت لحالي:

الله حلَّل الكذب في ثلاث حالات. الكذب في الإصلاح بين متخاصمين. والكذب في الحرب وكذب الرجل على زوجته. ونحن في حالة حرب يا أخي. وعينك تشوف أخوك... عملت لك ورشة كذب. ما خلّيت حدا ما كذبت عليه. فخرج الناس من عندنا آخر انبساط. هذا يقول لأمي: "الله لا يحرمك إياه... شعلة ذكاء يخزي العين!" وهذه تقول: "كرمى للنبي بوسي لي إياه على خده.. اسم النبي يحرسه ما أجرعه!"

ومن كثرة ما مدحوني خفت أصدق كذباتي! المهم يا مولانا. أعطينا الحرمة حصتها من الغلة! ونمنا ساعتين. ومع شقشقة الضوء ركبنا هالموتور وقلنا يا ميسّر!

وصلنا طرطوس الساعة سبعة على التكّة! فأخذونا وسلمونا دبابة ثانية وقالوا لنا: "الله معكم.. إلى الجبهة.."

استلمت قائد دبابة وطلع معي سائق احتياط من صدد اسمه يوسف. كنت أقول له:"شدّ يوسف.. شدّ! فيرد عليّ بصوته النيء:"على الصاجة!"

المهم قطعنا الرتل قبل صدد فقال يوسف:"بيتنا رمية حجر.. اسمح لي دقيقتين أشوف الحرمة والأولاد."

قلت له:"معك عشر دقايق. خف يا لله."

اللّه وكيلك راح الزلمة ووجهه مقشّب كله رمل وغبار ورجع ملحوس من كثرة البوس.

بعد صدد دخلنا ضيعة اسمها مهين أو مانين ما أعرف. هناك هجم علينا الأهالي! عينك تشوف نسوان وصبايا وشباب وشيوخ وزلم. هذه معها صرة أكل وهذا معه كيس فواكه... اللّه وكيلك عبينا البابة تفاح وكبة نية وبندورة وخيار ومن جميعه.. وهجموا علينا هالشباب يقولون: ما عليكم. أعطونا عناوينكم ونحن نبعث مكاتيب لأهاليكم نطمئنهم عليكم.

طول عمري طبعي فرح وما أطيق البكاء والتمصيع! لكن دمعتي نزلت وحياة الطيبين قلت لحالي: يا لطيف قدّيش ناسنا عشانين للكرامة والنصر؟

وصلنا لضيعة اسمها الناصرية فعبأنا مازوت ودعسنا. قبل الحرجلة فلتت معنا دعسة المازوت فصادفنا ورشة ميدانية متحركة قام قائدها بتصليح الدعسة بيده وهو برتبة عقيد.

هبت ريح الجبهة فحطّ الملقّم أصبعه في أذنه وفقع بيت عتابا يقشعرّ له البدن. صاح الرامي:

"طاب الموت يا شباب!"

دخلنا الحرجلة قبل منتصف الليل. وهناك عرفنا أنه تم وقف إطلاق النار.. وخلصت الحرب قبل ما أجرّب دبابتي الثانية.

الضيق[1]

"إن عصرنا هذا هو عصر الضيق أكلُنا ضيِّق، شرابُنا ضيِّق، زيّنا ضيِّق، مسكَنُنا ضيِّق، مرتَّبُنا ضيِّق، تفكيرُنا ضيِّق، مطمَحُنا ضيِّق، أفقنا ضيِّق، عدلنا ضيِّق، عالمنا ضيِّق، مصيرنا ضيِّق، موتنا ضيِّق، قبرنا ضيِّق الضيِّق الضيِّق .!

افتحوا الأبواب والنوافذ... سيقتلنا الضيِّق! افتحوا الأرض والسماء... سيقتلنا الضيق! افتحوا الكون... سيقتلنا الضيِّق!

الضيِّق... الضيِّق...!"

❖ (وجدت هذه الكلمات على قصاصة ورق في حقيبة يد المخرج فواز الساجر عقب رحيله)

جلست مقابله على كرسي القش الخفيض. انحنت نحوه بتوجُّس، فوقعت عيناه عفواً على نهديها الرخوين الذابلين عبر فتحة منامتها البنفسجية حائلة اللون.

"المسكينة... نشفتْ مثل العود" .

وضعت يدها على ركبته برفق كما لو أنها توقظه. همست: البرغل خلص.

[1] من مجموعة (الآنسة صبحا) صدرت لأول مرة عن دار الينابيع – دمشق ١٩٩٣

لم تكن بحاجة لمزيد، فهو يعلم مثلها أنها لا تطبخ البرغل عادةً إلاّ بطلبٍ منه، وأنّ الأولاد لا يأكلونه إلاّ عندما يقرصهم الجوع.

همست بأقصى ما تستطيع من هدوء وتعاطف: قم هات شيئاً نطبخه.

ابتلع لعابه فتحركت تفاحة آدم صعوداً ثم هبطت ضاغطةً جلدةَ عنقه النحيل الطويل من الداخل كما لو أنها تكاد تشقُّها. قال محوِّلاً وجهَه عنها بحرج: ما في مصاري.

شهقت مستغربةً: أمس قلت أنك اقترضت خمسمية ليرة من محمد!

أجاب مطرِقاً: صح.. وراحتْ!

قالت باستنكار وقد استعادت لهجتها الحلبية الصرفة: أشو؟ إي متى؟!

اختلجت شفته السفلى لاشعورياً: اليوم اشتريت بالفلوس دخان مهرَّب، وقبل ما أبيع باكيت واحد، مسكوني وصادروا الدخانات"

أيقظها سائل دافئ تسلَّل عبر منامتها وبلَّلَ باطن فخذيها. رفعت ابنها الرضيع عن حضنها بنزق وصاحت موجِّهةً كلامها لشخصٍ ما خارج غرفة النوم حيث كانت تجلس مقابل زوجها:

"اللّه يا خدك يا بنت الحَرام! قلت لك ألف مرة شخِّخي هالسعدان أخوكِ، ما سمعتي!"

اندفعت ابنتها الكبرى (ثورة) من الصالون إلى غرفة النوم. تلقّفت أخاها الذي بدأ يبكي، وهرولت إلى الخارج بخوف، وهي تتوقع أن تضربها أمها بالشحّاطة أو بفردة حذاء. لكن الأم كانت مشغولة عنها بشيء آخر. قالت بجدية يمتزج فيها التعاطف بالاحتقار:

"الدنيا مليانة بياعين دخان مهرّب. فليش مسكوك أنت دون كل خلق الله؟ تلاقيك رحت لقدّامهم وصرت تصيح..."

زمّ شفتيه محملقاً في الفراغ دون أن يردّ. تابعت الكلام:"ابن أختي عماد، من سنتين يبيع دخان مهرّب ماحدا مسكه ولا قال له ما أحلى الكحل بعينَك!... وكله شقفة ولد بالصف السادس!"

قاطعها مغمغماً:"... ابن أختك عماد طلع عنده شركاء عم يحموه. أنا كنت متلك مفكّر أنّ الشغلة بسيطة.. قمت..."

ضربت فخذها الأيمن قائلةً بتفجُّع: العمى ما أنحسَنا!

قال لها مواسياً: احمدي ربك طلعت الشغلة بالفلوس وليس بالنفوس. الله ستَر. ولو ما طلع رئيس الدورية ابن حلال وحنّ عليّ، كانوا كتبوني ضبطاً بالخمس كروزات وأحالوني للمحكمة. ساعتها كان القاضي عبد المعين ممكن يعملني ممسحة. فمن يوم ماعرف أني وراء اتّهامه بقبول الرشوة بقضية مجرم سوق الصاغة، وهو ناطر لي عالدَّعسة"

نفضت يديها بنفاد صبر. استفزَّته الحركة. قال بسخط: لا تزيديها . الفكرة فكرتك.. وأنا ما مصدِّق أصلاً كيف قلَّلت عقلي وانْعَميت على قلبي وسمعت كلامك...

خبطت رأسها بكلتا يديها : ما باقي إلاّ أن تقول لي أني سبب كل مصائبك.

انفتح الباب ودخلت ابنتها الثانية عزَّة حاملةً أخاها الصغير من تحت ذراعيه وقفاه العاري ملطَّخ بالبراز. قالت بارتباك: يامو، أخوي خالد خري على حاله.

انفجرت الأم صارخةً في وجه ابنتها الصغرى: ربي يقصف عمر أمك ويريِّحها من هالعيشة المسخَّمة معكم!.

نقل حسن نظره بين وجه زوجته المحتقن بالغضب وقفا ابنه الملطخ بالبراز. قوَّس شفتيه متفكِّراً ثم نهض. وعند الباب أطلق نفخة طويلة وخرج دون أن يلتفت.

اتسعت حدقتا عينيها عندما رآته يدخل خالي اليدين. أرادت أن تتكلم فرفع يده يرجو منها السكوت. تبعته إلى غرفة النوم. قال رداً على عينيها المتسائلتين:

"ما مشي الحال. كل الناس يشكون الضيق مثلنا .. وأنا ما عاد لي وجه أطلب من محمد .. دبِّري رأسك اليوم وبكرة فَرَج..."

قالت وهي تحاول كتم غيظها : يا ابن الحلال. قلت لك البرغل خلص.

تملّى وجهها الشاحب وشعرها الأسود المنسدل الذي فقد بريقه وبدأ يخالطه الشيب. توقف عند شفتيها المكرنشتين. شعر بحنان جارف إزاءها وبامتنان عميق لعمرها الذي أعطته له. احتوى خدَّها الذابل براحته فأبعدت رأسها بنفور كما لو أن رقّته المفاجئة قد أغضبتها. قالت بجفاء: قلت لك البيت ما فيه لقمة.. إشُو ما عم تفهم؟!

فوجئ بردّ فعلها فشفطَ الهواء من منخريه بتوتر مقوِّساً فمه مكرنشاً ذقنه. قال بصوت متهدِّج: "وإذا يعني؟"، ثم نخر باهتياج. خبطَ صدره بيده اليمنى مطبقاً قبضته على نهده الأيسر وشدَّ بقوة: "بقطِّع لك من لحمي؟ هاتي سكين لأقطع لك! أقسم بشَرَفي وعقيدتي بقطع لك. إي العمى.. مفكّرة أني عديم الإحساس. لا يا ستّ.. أنا شايف وفهمان كل شيء وما قادر أعمل شيء.. أصحابي حالهم من حالي، وأنا ما عدت أعرف حالي.. ما بقي حدا إلا وله معي فلوس.. أخي العكروت بلع الموسم بحجة أن الأرض ما طالعت أجرة الشغيلة.. وأنا ما ممكن أبيع الأرض لأني حلفت للمرحوم أبي أني ما أبيعها.. وحضرتك رافضة تعيشي بالضيعة.. فتفَضّلي قولي إيش ممكن أعمل؟

اختلجت عضلة فكه وقد ترقرقت الدمعة في عينه:

"أنا طول عمري كنت أعتبر حالي مواطن شريف. لكني اكتشفت البارحة أني غلطان بحالي وأني شريف غصباً عني، لأنه ما في قدَّامي شيء أسرقه.. أنا طول عمري كنت أعتبر التهريب سرقة لأموال الدولة والبارحة حاولت أشتغل بالتهريب، يعني حاولت أسرق!

وانمَسَكْت. وأنا ما قادر أرتشي، فلو ارتشيت ولو بليرة، فالقاضي عبد المعين رح يلبِّسني قضية وساعتها أصير أنا المرتشي ويصير، هو الحرامي، رمز الشرف والفضيلة. شرِّفي قولي لي إيش ممكن أعمل؟ المسيح عليه السلام بيقول:"ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم وخسر نفسه"... وأنا خسرت نفسي وما ربحت شيء!

تحشرجَ صوته. رمت نفسَها عليه، عانقته بحرارة فانخرطَ في نشيج مرير. اخترقت دموعه منامتها الرقيقة لتبلِّل كتفها النحيل. هدهدَتْهُ كطفل. مسَّدَتْ شعره بيدها النحيلة المرتجفة. غمغمت: ما قصدي...

قال بهدوء مفاجئ: اليوم جمعة. خدي الأولاد وروحي لعند أهلك وبكرة فرج.

قالت بين التذمُر والانصياع: حال أهلي من حالنا. والكل صاروا يعرفوا أن القصد من زياراتنا هو الأكل. المرة الماضية سمعت أخي عماد عم يقول لأمي عني: ماكفَّاها تزوجت واحد من غير طائفتها، وأخذته منتوف أباً عن جدّ!.

ربت على كتفها برفق. قبَّلها من عينيها الدامعتين. ابتسما معاً إذ تذكَّرا أغنية محمد عبد الوهاب:"بلاش تبوسني من عينيّ دي البوسة من العين تفرَّق".

نهضت دونما رغبة. التفتت إليه عند عتبة الباب فرأت في عينيه بريقاً غريباً لم تألفه فيهما.

أنصَتَ لوقعِ أقدام زوجته وأولاده على الدرج، وعندما تلاشت الأصوات في الأنين الغامض المنبعث من قلب المدينة تمدد على السرير وراح يفكر مغمض العينين. تذكَّر كيف تعرَّف عليها في المظاهرة التي خرجت قبل حوالى ربع قرن احتجاجاً على تصريحات أبو رقيبة بشأن الصلح بين العرب وإسرائيل. كان يومها طالباً في الصف الثاني الثانوي، اختاره مدرب الفتوة عضواً في لجنة الانضباط لتنظيم حركة الطلاب خلال المسيرة وأثناء إلقاء الكلمات.

ونظراً لما يتمتع به من طول قامة وأخلاق حميدة، فقد كلَّفَهُ المدرِّب بمهمة خاصة هي منع الطلاب من الانقياد لحماسهم الوطني واختراق صفوف الطالبات، وكانت هي يومها طالبة في الصف الثامن تقفز مؤرجحةً شعرها الأسود الناعم الطويل على كتفيها النحيلين وتهتف بحماَس وغضب:"بدنا ندوسه.. بدنا ندوسه!"

وما أن تُرَدِّد الأصوات النحيلة الحادة صرختها حتى تكمل الهتف:" لبورقيبة بدنا ندوسه."

داست على قدمه أول مرة، فدفع الطلابَ المصطفِّين خلفه محافظاً على مسافة الأمان المقررة. واصلت الهتاف بحماسٍ أشدّ:"بدنا ندوسه.. بدنا ندوسه!"

وفي غمرة حماسها قفزت ثانيةً وداست على قدمه فقال لها ضاحكاً:"اصحي تكوني مفكرة أني أبو رقيبة حتى عم تدوسيني."

لاحظت أثر دوستها على حذائه الأسود. التقت عيناهما لأول مرة. ضحكا بشقاوة وارتسم بين عينيهما خيطٌ من ضوء.

في اليوم التالي صادفها في طريقها إلى المدرسة. خبّأتْ ضحكتها بكفها لكنها لم تستطع أن تخبئَ الفرحة في عينيها. في الأيام التالية تكررت الصدفة حتى صارت موعداً في الوقت نفسه من كل يوم. أربكته رسالتها الأولى بفصاحتها وترتيبها، وعندما لم يعرف كيف يرد عليها، استشار خبير العشق والغرام في صفهم، فنظر إليه من طرف عينيه وأعاره كتاباً بعنوان"رسائل العشاق". شعر بارتياح عميق حين عثر على نص رسالتها في ذلك الكتاب، وظل يضحك حتى فتحتْ أخته عليه الباب قائلةً بخوف:

"باسم الله الرحمن الرحيم. يا شحاري.. شو بيك عم تضحك لوحدك مثل المجانين؟"

شرع في نسخ جواب الرسالة من الكتاب، فشعر بالضيق. عندئذٍ مزّق الورقة وكتب على صفحة أخرى:

"ردي على رسالتك على الصفحة ١٦ من الكتاب نفسه".

في الرسالة الثانية كتب لها إنه سينتظرها بعد الانصراف مباشرةً في حديقة السبيل.

وعندما التقيا سلمت عليه بيد مرتجفة وتابعا السير في ممرات الحديقة وقد ربط الارتباك لسانيهما. لاحظ الشبه بينها وبين الشجرة المستحيّة. الشعر الطويل المنسدل تقابله الأغصان الطويلة

المنسدلة. الساق المستقيم باعتداد يقابله القدُّ الخيزراني النحيل.
قال لها: بتعرفي أنك بتشبهي الشجرة المستحية؟

أطرقت برأسها إلى الأرض وقد اندفع الدم إلى خديها. وبعد بضع خطوات قالت: أبي يسميني المستحية.

قبيل نهاية الدوام الدراسي، أخبرها أمام الشجرة المستحية نفسها بأنهما قد لا يلتقيان بعد ذلك أبداً، لأن والده الذي يعمل مدرّباً برتبة مساعد في مدرسة المدفعية بحلب قد أحيل إلى المعاش، وسيعود معه إلى الضيعة.

لكنّ الظروف التي أخذت الوالد مدرّباً من مدرسة المدفعية، أعادت الابنَ تلميذاً إليها بعد سنتين.

ثلاثة أشهر ونصف مضت على وجوده في حلب. كان يشتهي حضور فيلم سينمائي خلال الإجازات الساعية التي كانت تمنح له بعد ظهر اليوم الأخير من كل أسبوع، إلا أنه كان يمضي كل إجازاته وهو يتمشى بين الحي والمدرسة والحديقة على أمل أن يلتقيها. وعندما يئس من ذلك ذات يوم، ركض ليلحق بأحد الباصات النازلة إلى قلب البلد ليحضر فيلم"صوت الموسيقى" فوجدها في الباص مع أمها المسربلة بالسواد. شعر بقلبه يدق في عينيه فتختلج الرؤية فيهما. كتب على قصاصة ورق: (الخميس القادم الساعة ٣ في حديقة السبيل قدام المستحية).

اقترب منهما. تمسَّك بالعمود الذي تتمسك به. لاحظت الورقة فقرَّبت يدها، وعندما مسَّت سبابتها جانب خنصره، أطلقت شهقة خفيفة كما لو أنها تكهربت، وأخذت الورقة.

تذكر حبه العميق لها وحبها الجارف له وكيف استطاع هذا الحب أن يخترق الحواجز واحداً فآخر وأن يفرض نفسه كحقيقة راسخة على أهاها وأهله.

نهض عن السرير بعينين حمراوين. تناول حقيبته الجلدية ومضى إلى المطبخ. فرَدَ جريدةً على طاولة الطعام ثم أخرج كدسة من الأوراق وأخذ يكتب بخط جميل وبرشاقة أكسبته إياها السنوات التسع التي أمضاها كاتباً في محكمة الجنايات بحلب.

ألقت موظفة البريد الثلاثينية البدينة نظرةً باردة من خلال نظارتيها الطبيتين السميكتين، على غلاف الرسالة. وعندما قرأت اسم المرسل إليه تجمَّدتْ كما لو أن شخصاً خفياً قد قرص عجيزتها المترهلّة.

مسحته بعينيها المتلجلجتين طولاً وعرضاً كما لو أنها تريد أن ترى خلال لحظة واحدة كيف يبدو الرجل الذي يجرؤ على توجيه رسالة لمثل هذا العنوان. ابتلعت لعابها. قالت: هويتَك.

قارنت بينه وبين صورته على بطاقة الهوية ثلاث مرات متوالية ثم سجلت المعطيات على الصفحة المقابلة لصفحة الإيصالات بدقة وبخط واضح. وقبل أن تكتب اسم المرسل إليه على الإيصال بإيداع مادة مسجَّلة، نظرت نحوه كما لو أنها تتوقع أن يتراجع، وعندما رأت

وجهه الحيادي البارد أنهت عماها وأعادت له هويته مع الإيصال والمبلغ المتبقّي له من العشر ليرات.

في طريقه إلى البيت كانت تفاصيل حياته الماضية تغلي في داخله بسخط لم يعتده. كان المارة يلاحظونه بنظراتهم وهو يلوح بيديه مكلماً نفسه كما لو أنه وحيد في صحراء.

أغلق الباب خلفه بقوة. بحث في خزانة الثياب عن شيء ما، ثم عاد إلى المطبخ الضيّق ومعه جلابية بيضاء مهترئة تحت إبطها الأيمن. فرد الجلابية على الطاولة. ثبّتها من الجهة الأخرى بقطرميز رب بندورة فارغ وقطرميز فيه القليل من السكر وشدّها بيده من الجهة الأخرى فاختفت التجاعيد عنها. تناول قصبة التخطيط. بلّها في قارورة الحبر الصيني الأسود وأخذ يكتب على صدر الجلابية بخط جميل:

خلاصة حكم

"باسم الله والشعب.

بما أن من ينجب أطفالاً ولا يستطيع إطعامهم غيرَ الذُل، هو مجرمٌ واجبُ العقاب، فقد حكمتُ أنا الموقع أدناه حسن شداد في الجلسة المَنعقدة بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٨٨ على المجرم حسن شداد بالإعدام شنقاً حتى الموت كي أكون عبرةً لمن يعتبر. وأهدي ميتَتي هذه لسيادة الـ.. أملاً أن يكون نِعْمَ الزوج ونِعْمَ الأب لزوجتي وأولادي. والله أكبر"

في الساعة العاشرة والنصف من مساء ذلك اليوم، كان طبيب شاب نحيل القامة يكتب الشعر في غرفة الطبيب المناوب في مشفى الكندي بحلب. كان قد كتبَ:

"هذا المشفى يشبهني

في النهار ينشغل بمعالجة الآلام

وفي الليل ينأسر بوحدته وآلامه"

تعالى طَرْقٌ شديد على باب غرفة الطبيب المناوب، فصاح بانزعاج: ادخل.

اندفعت ممرضة طويلة القامة إلى الغرفة وهي تلهث: يا لطيف الطُفْ!

وضع الطبيب القلم على المكتب بهدوء كما لو أنه معتاد على انفعالاتها الزائدة. "شو فيه؟"

جففت دمعةً من عينها اليمنى ثم همست:

"يا لطيف! واحد حاكم على حاله بالإعدام!

هرع الطبيب إلى غرفة الإسعاف. قال للمرضة وهو يتفحَّص الجثة: اتصلي بالشرطة.

تناول استمارة. التفت إلى الممرض: معه شيء يثبت شخصيته؟

تناول الطبيب الهوية من الممرض. كتب:

اسم المريض: حسن شداد

السن: ٤٠ عاماً.

الطول: ١٧٠ سم

لون العينين: عسليتان.

الشعر: خرنوبي.

حالة المريض: وصل متوفّياً.

أوصاف الجثة: بفحص الجثة عينياً لوحظ وجود أثر لأخدود حول العنق مع وجود علامات اختناق على وجه الجثة وهذه الآثار تدل على استعمال حبلٍ أو ما شابَهَ.

يُحال إلى الطبابة الشرعية لتحديد سبب الوفاة.

تاريخ الواقعة ٢٥ نيسان ١٩٨٨

اسم الطبيب فؤاد محمد

توقيع

بدأ الناس يتدفقون إلى غرفة الإسعاف لقراءة خلاصة حكم حسن شداد على نفسه، وعندما وصل رجال الأمن طردوا الجميع خارج الغرفة وأخذوا الجلابية ثم نظر قائدهم في عيني الطبيب وقال له كما لو أنه يبلغه قراراً:

"حادثة انتحار عادية"!

بعد ستة أيام قال الموظف المكلف بفتح البريد الخاص في مبنىً ضخم في العاصمة محاط بالحراس، لزميل له: تصَوَّر، فيه واحد قدَّم موته هدية. أمّا ناسٌ مجانين بالفعل! تلاقي الواحد منهم وهو حيّ ماله قيمة، فشو رح تكون قيمة موته حتى يهديه!

نظر الموظف الثاني إلى زميله من طرف عينه فأطرق الموظف الأول بأسىً ثم كتب بقلم أحمر أعلى الرسالة: "للحفظ"! ووضع تحت الكلمة خطين نزقين.

الآنسة صبحا[12]

مزموم الرقبة يمشي كما لو أنه يتوقع أن ينزل على نقرته كفٌ من السماء. يلقي السلام بصوت نيء مزرزقاً عينيه إلى اليمين فالشمال: "إلهي ومولاي يعطيك العافية".

في حضرة من يكبرونه سناً وقدراً يربص دونما حراك وعلى وجهه تلك الابتسامة المتوترة التي توحي بأنه ينتظر أن يُضرَب على نقرته. وعندما يتوقف المتحدث لحظة لالتقاط أنفاسه يقول له مرفرفاً برموش عينيه: "صدقتَ يا آدمي.. أي والله صحيح"

أما في حضرة الناس العاديين فكان يلوي رقبته كما لو أنها تكاد تتقصف تحت ثقل عقله الرزين، ثم يمسح فمه وذقنه براحتيه اليسرى فاليمنى على التوالي مغمغماً بورعٍ مبالغ فيه:

"إلهي لك الحمد ورضاك الشكر.. يا كريم. إلهي وأنت جاهي تستر آخرتنا وتحسِّن حالنا يا سميع يا عليم".

إلا أنه لم يعد يجرؤ على فعل ذلك في حضرة ابن عمه حمد. فمنذ سنة وبضعة أشهر كان طاهر جالساً مع عبدو حسي والأشرم وعباس عون تحت التوتة ينتظر انتهاء (زيق) المنقلة بين حمد

---

[12] من مجموعة بنفس العنوان صدرت لأول مرة عن دار الينابيع - دمشق ١٩٩٣

والأشرم ليلعب. وعندما بدأ الزيق يميل لصالح الأشرم، شرع طاهر في استذكار أدعيته مستجدياً الإعجاب ممن حوله"إلهي يا حنان يا منان يا رؤوف يا سلطان..." فما كان من حمد المغتاظ إلا أن رشق ابن عمه بما في يده من حصى المنقلة صائحاً فيه:"إلهي ياخذك ويريحنا منك... يا ثقيل!"

نقز طاهر كما لو أن الضربة التي طالما انتظر نزولها من السماء على نقرته، نزلت أخيراً. قال مرتاعاً:"لا .. ابن العم.. لا تغلَط!"

هزّ حمد رأسه بنفاد صبر زاماً شفتيه كما لو أنه يبتلع دواء مراً. قال:

"اسمع! قسماً بالله إذا أنا لحقت النسوان وأنت لحقت الصلاة، الله رح يوفّقني أكثر منك..."

قال طاهر ماسحاً طرف أنفه بحركة لا شعورية:"ليش بقا؟"

"لأني رح ألحق النسوان بنيَّة طيبة.. أما أنت فرح تلحق الصلاة بنية عاطلة... يعني وَجْهَنة... قدام الخلق!"

يومها سكت طاهر كما لو أنه أُلقم حجراً، فقد كان لكلام ابن عمه مبرراته. فطاهر مازال يعيش في بيت التراب الذي ورثه عن أبيه ولم ينجب أطفالاً رغم مضيّ اثني عشر عاماً على زواجه. بل إن زوجته حسنة التي كانت حسناء الضيعة ذبلت بسرعة عجيبة وتكرنشت بشرتها كما لو أن طاهر ينفث السم بين فخذيها. أما أحواله المادية فلم تتحسن كثيراً بالقياس إلى أسرته الصغيرة وعمله الكثير. لكن طاهر كان يملك ما يُفاخر به حقاً. فبقرته التي

أسماها "صَبْحا" لعلامة بيضاء على جبينها، هي من أجمل أبقار المنطقة وأكثرها إدراراً للحليب. وهو يستمتع كثيراً بسرد القصص عن ذكائها العجيب لدرجة أن ابن عمه حمد لقَّبَها "الآنسة" واقترح عليه أن يدبِّر لها واسطة ويعيِّنها مديرة لمدرسة الضيعة!

وقد كانت الآنسة صبحا ذكية بالفعل. فبسبب تاريخها المشرِّف في أكل الثياب قام طاهر بنصب مَنْشَر متحرِّك على بكرتين يمتدّ من ركن بيته إلى قفْل التوتة التي تقَع على بعد عشرة أمتار منه. فكانت زوجته تبعد الَثياب بعد نشرها وتستعيدها عندما تجفّ. إلا أن الآنسة صبحا لم تنْطَل عليها اللعبة لوقت طويل. فذات يوم استغلَّت انشغال طاهر بقطف بَنيَّات التبغ وغيابَ زوجته على العين، وظلت تلوك حبل القنب من الجهة المنخفضة حتى انقطع المنشر. ولو لم تنتبه جارتهم عليما لذلك لكانت الآنسة صبحا قد قضت على نصف ثياب العائلة.

لكن ذكاء الآنسة صبحا كان خطراً رغم تفاخر طاهر الدائم به. إذ كانت تضعه في خدمة جشعها وليس من شيء أخطر من الذكاء عندما يوضع في خدمة الجشع. فقد اكتشفت الآنسة صبحا أن باب غرفة المؤونة يُفتَح بالدفع إثر سحب شطفة خشب تُحشَر عبر ثقب في الباب بشكل موارب بين الباب والجدار. وفي أحد أيام الصيفً الماضي ظلت الآنسة صبحا تعالج شطفة الخشب بخشمها حتى وقعت. فدفعت الباب بمقدمة رأسها ودخلت. وبما أن صاري باب السنديان الثقيل يركَّب مائلاً لتسهيل عملية إغلاقه، فقد انغلق

الباب خلف الآنسة صبحا. شمشمت دربها إلى عنبر الحنطة. التقطت بضع حبيبات هرت على الأرض أثناء تعبئة الطحنة الأخيرة من العنبر. لمحت بضع حبات أخرى من القمح تطلُ من أسفل"عين" العنبر التي هي بمثابة بوابة خشبية صغيرة محصورة بين مجرَيَيْن، فأخذت تلعط البوابة بلسانها. وبما أن عين العنبر كانت متوسّعة بعض الشيء بسبب كثرة الاستعمال، فقد ارتفعت البوابة قليلاً إلى أعلى واندفعت من تحتها بضع حبيبات من الحنطة، ونظراً لذكائها الشديد فقد اكتشفت أن عين العنبر تفتح للأعلى، فدفعتها بخشمها. وبعد لحظات كانت كل مؤونة بيت طاهر من الحنطة مكوَّمة أمام الآنسة صبحا.

خشَّ قلبُ طاهر عندما لم ير بقرته أمام البيت، فنادى امرأته التي كانت تخبز على التنور ولما أجابته بأنها لم تر صبحا هرول نازلاً في الزاروب موقناً أنها لابدّ أن تكون في"قصيل" ابن خاله سمعان الذي أقسم بالتسعة وتسعين نبياً أن يقصّبها إذا أمسكها في قصيله مرة أخرى. شعر بالارتياح عندما لم يجدها في القصيل فهرول مسرعاً يريد إنهاء تعمير رعش مهدود في أرضه. إلا أن ابن عمه حمد دعاه لشرب كأس من الشاي، فزرزقَ بعينيه وقال وهو يزمّ رقبته من جديد مستسلماً لإغراء كأس الشاي:

"يلعن أبو الشغل! حق الله العمر بيخلص والشغل ما بيخلص.."

بعد حوالى نصف ساعة سمع طاهر زوجته تولول. فانطلق إلى بيته القريب يتبعه ابن عمه حمد.

كانت الآنسة صبحا مسطوحة على الأرض تلهث وبطنها منفوخ بشكل فظيع. نقل حمد نظره بين عين العنبر الفارغة والبقرة المنفوخة، ففهم القصة من فوره. دفع طاهر الذي تجمَّد مزموم الرقبة جانباً، قائلاً بسخط:"شبك واقف متل الطسمة! هات إيدك خلينا ننهضها".

اجتمع الرجال على ولولة حسنة وبعد جهد جهيد استطاعوا إيقاف الآنسة صبحا على قوائَمها. قال سلامة السٍّبعيني:

"ركِّضوها حتى تهضٍّم! ما لها دوا غير الركض!"

صاح حمد:"ناولوني خناق".

جاءته حسنة بحبل قصير من شعر الماعز المجدول. لفَّهُ حول عنق البقرة وسحبها بينما أخذ الرجال يدفعونها محدثين صخباً مجنوناً. ذعرت البقرة فركضت بضعة أمتار من غلاوة الَروح ثم نخَّتْ على قائمتيها الأماميتين ووقعت. قال سلامة:

"اسقوها زيت حتى تسهٍّل... مالها دوا غير الزيت!"

أحضر طاهر تنكة وقمعاً. وبعد محاولتين فاشلتين استطاع الرجال أن يرغموا الآنسة صبحا على فتح حنكها فوضع حمد القمع فيه بينما أخذ طاهر يسكب الزيت من التنكة.

كانت الآنسة صبحا المسكينة تستغيث بخوارٍ واهن يقطع نياط القلب ناثرةً الزيت على ثياب الرجال. لكن الرجال مضَوا في تثبيتها

واستمر طاهر في سكب الزيت في القمع حتى آخر نقطة في التنكة. ولو لم ينته الزيت لما انتبهوا إلى أنّ البقرة قد همدت تماماً.

كان حمد يكره الظلم بطبعه وقد رأى فيما جرى لابن عمه ظلماً فظيعاً. فقد خسر المسكين بقرته ومؤونة بيته من الحنطة والزيت دفعة واحدة. شعر حمد برغبة بالبكاء رغم أنه لم يكن يستلطف ابن عمه كثيراً. استند إلى صخرة الجرن الذي تُدَقُّ فيه الحنطة منقّلاً بصره بأسىً بين البقرة الميتة وبنطلونه الملطخ بزيت الزيتون.

في تلك اللحظة وقف طاهر خلف حمد باسطاً يديه إلى أعلى زاماً رقبته كما لو أنه يتوقع ضربة من السماء. وبعد أن شفطَ الهواء من منخريه على ثلاث دفعات متوترة، خنخنَ بصوتٍ خانع:

"ألف الحمد والشكر لك يا كريم!"

فما كان من حمد إلا أن قفز كالملدوغ وأهوى بكفه على نقرة طاهر بكل ما أوتي من عزم، فدوّت كطلقٍ ناريّ. وقبل أن يفيق الجميع من ذهولهم انفجر حمد في وجه ابن عمه صائحاً:

"وعم تشكر كمان! ما بتعرف يا بهيم أن الله يقول:"وإن شكرتم لأزيدَنَّكم"!

دمشق – كانون الثاني – ١٩٩٠

دفشة يا شباب[13]

في الصيف لا يعرف البحر الحياد. إنه ككل الجبابرة يخيرك بين ثلاثة لا رابع لها: إما أن تكون فيه فتستمتع بهباته، أو أن تبتعد عنه فترتاح من منغصاته، أو أن تقترب منه دون أن تنصاع له فيتلقاك كما الخصم، وقد يمرمرك وينغص عليك حياتك...

الرطوبة، تلك هي مقدمة البحر الأولى وسيفه ذو الحدين. بالرطوبة يعاقب البحر جيرانه الذين لا يدخلون في طاعته فينغص عيشهم. وبالرطوبة يكافئ البحر المنغمسين في ملكوته فينعشهم ويدهشهم.

فيما مضى من عمري كانت علاقتي بالبحر ملتبسة. عندما رأيته للمرة الأولى شعرت بالخشية والخشوع كجندي بسيط وجد نفسه أمام قائده العظيم.

لم يؤذني، بل كان طيباً معي. لذا أحسست أنه من واجبي أن أحبه أسوة بالآخرين. لكنني في الحقيقة كنت أخاف منه، والحب والخوف لا يجتمعان، وإن اجتمعا فلا بد أن يأكل أحدهما الآخر. وقد أكل خوفي من البحر حبي له.

---

[13] من مجموعة بعنوان (أب مستعار) دار هيا دمشق ٢٠٠٢

أدركت ذلك عندما سمعت للمرة الأولى ترجمة أغنية"كوانتا ناميرا" التي هي في الأساس قصيدة للشاعر الكوبي خوسيه مارتي، لحنها الشعب الكوبي خلال المظاهرات في عهد ماقبل الثورة، فتحولت إلى أغنية عصية على الفناء. تقول الأغنية:

"أنا إنسان صادق

من أرض أشجار النخيل

قصائدي خضراء ...قرمزية

قصائدي خشف غزال جريح

يبحث عن ملجأ في الغابات،

مع فقراء هذه الأرض

أريد أن أقتسم مصيري

فينابيع الجبال تبهجني أكثر من البحر".

دُهشتُ إثر سماع هذه الأغنية – القصيدة كيف استطاع هذا المدعوَ مارتي أن يعبر بهذه الدقة المدهشة عما كنت أحس به رغم تباعد الزمن والجغرافيا.

نعم، ذلك صوت قلبي، فينابيع الجبال تبهجني أكثر من البحر ...صحيح أن ينابيع الجبال مآلها البحر، لكنها تبهجني أكثر منه،

فالبحر بالنسبة لي، أشبه بالموت الذي تصب كل الينابيع البشرية العذبة فيه لتصبح مالحة من ملحه.

كانت هذه الأفكار تعتمل في داخلي وأنا أقود سيارتي القديمة في الشارع الواصل بين كراج الجلاء وثانوية الشهيد أحمد سعيد يونس في مدينة جبلة المجاورة للبحر. كان العرق يسح من خلاياي سحاً وفي داخلي يتعاظم شعور كريه بالدبق والاختناق.

إنه تموز، وفي تموز يغلي الماء في الكوز، وتزرع الشمس نارها في كل شيء تحتها! كنت متجهاً صوب الجبل، هارباً من رطوبة البحر ودبقه، وعندما وصلت إلى منتصف الشارع الخالي من المارة لمحت كرة تتدحرج عبر الشارع، خففت من سرعة السيارة لأن التجارب علمتني أنه خلف كل كرة تتدحرج طفل يركض، إلا أن سرعة الطفل فاقت توقعاتي، فلم أجد بداً من استخدام المكابح بطاقتها القصوى.

انزلقت السيارة على الإسفلت مسافة قصيرة ثم توقفت دون أن تمس الطفل. حمل الطفل كرته ومضى مبتعداً كما لو أن شيئاً لم يكن. حاولت تشغيل محرك السيارة الذي انطفأ بسبب الاستخدام المفاجئ للمكابح، إلا أن طاقة البطارية المستهلكة لم تكف للإقلاع بالمحرك من جديد.

نَظَرْتُ خلفي فوجئت أن رتلاً من السيارات قد تشكل خلال لحظات. اعتراني الارتباك، نظرت حولي فرأيت في الدكان المحاذي للسيارة، من الجهة اليمنى، شابين في حدود العشرين من العمر، أحدهما يجلس

فوق القاطع الخشبي الذي يفصل الدكان عن الرصيف، والآخر يجلس على كرسي عادي خلف القاطع. صرخت نحوهما:

-"دفشة يا شباب!"

توقف الشابان عن الحديث للحظة، تبادلا نظرة ذات مغزى ثم انهمكا في الحديث من جديد، دون أن يتزحزح أي منهما من مطرحه. تعالت أصوات منبهات رتل السيارات الممتد خلفي. نظرت حولي مجدداً فلم أجد أحداً. صرخت نحو الشابين مرة أخرى:

-"انقطع الطريق يا شباب، دفشة كرمى للنبي!"

نظر أحد الشابين إليَّ ببرود شديد دون أن يقول شيئاً ثم عاد لمحادثة زميله. بدأ الغيظ يغلي في داخلي. هل ماتت الشهامة في النفوس؟ أين غيرة أولاد البلد؟ صرخت عبر نافذة السيارة مجدداً:

-"انقطع الطريق يا شباب! دفشة من شان الملايكة!"

نظر أحد الشابين إليَّ ببرود شديد، ثم عاد لمحادثة زميله. صرخت محتاساً:

-"شو يا شباب؟ ما في دفشة؟"

نفض الشاب الجالس على القاطع الخشبي رأسه إلى أعلى بالنفي. احتقن وجهي بالدماء فلم أعد أسمع منبهات السيارات الواقفة خلفي. ترجلت من السيارة، وفي داخلي يمور إحساس فظيع بالقهر. توجهت نحو الشابين. قلت لهما بهدوء لئيم يصدر عن غيظ شديد:

-"مرحبا".

رداً في نفس الوقت تقريباً:

-"أهلين"!

تزايد إحساسي الفظيع بالدبق والاختناق، فأخذت أحكي بانفعال! لست أذكر ما الذي قلته للشابين على وجه التحديد. أذكر أني قد سألتهما عما إذا كانا يعرفان لماذا لم نستطع نحن العرب تحقيق أي نصر كامل في التاريخ المعاصر ؟ ولماذا تجترئ البلدان الأخرى علينا وتسرق ثرواتنا؟

عندَهَا نظر كل من الشابين إلى صاحبه باستطراف، ثم هزَّا رأسيهما بالنفي في نفس الوقت تقريباً. عندها تابعت الكلام بلؤم شديد منفساً عن غيظي، قلت:

-"لأننا مائتي مليون فرد لا يعبأ أحدنا بالآخر ولا يمد له يد المساعدة! ومائتي مليون فرد لا يصنعون أمة ولا أمجاداً"!

قلت ذلك وهممت بالعودة لدفش السيارة بعد أن نفست عن غيظي، إلاَّ أن الشاب الجالس على القاطع الخشبي استوقفني قائلاً:

-"وينك يا أخ؟"

استدرت نحوه أريد معرفة مايريد:

-"نعم؟"

قال لي بلهجة هادئة لا تقل لؤماً عن لهجتي السابقة:

-"حضرتك بتحب تعرف ليش ما قمنا ...ودفشناك؟"

قلت بلهفة شديدة:

-"يا ريت!"

عندها أهوى الشاب بيده على ساقه اليمنى المتدلية إلى جانب القاطع ثم أطبق عليها وقذفها عالياً، فتلوت في الهواء كما لو أنها جراب طويل مليء بالخرق، ثم سقطت مرتطمة بالحاجز، وهي تهتز كرجل رجل ميت!

غرز الشاب عينيه في عيني فاعتراني ارتباك فظيع! تزايد إحساسي بالدبق والاختناق. شعرت كما لو أنني قد تلقيت لتوي ضربة على أم رأسي بطشتٍ من النحاس فامتلأت بالطنين!

وقفت ذاهلاً بضع لحظات، ثم نظرت إلى الشاب الآخر الذي يجلس داخل الدكان. غمغمت والقشعريرة تسري في جسدي:

-"و أنت ...مثله؟"

عندها أطبق الشاب الآخر على ساقه اليمنى وقذف بها عالياً، فتلوت في الهواء ثم انخبطت أرضاً مثل كيس مليء بالخرق المبللة. لحظتها اعتراني شعور بالخجل من نفسي.

تذكرت كلماتي اللئيمة المتعالية، فتمنيت لو أن الأرض تنشق وتبتلعني. قلت لهما وفي داخلي يعتمل إحساس فظيع بالتفاهة والسطحية:

-"سامحوني يا شباب، كرمى للنبي"

عندها ابتسم لي الشاب الجالس فوق القاطع وقال مهوناً الأمر علي، إذ لاحظ مدى ارتباكي:

-"بسيطة يبو! هالشي منه كتير!"

استيقظت على منبهات السيارات التي تعوي خلف سيارتي دون انقطاع. وفي تلك اللحظة وصل إلى الدكان شابان طويلان يضجان بالعافية. قال الشاب الطويل مبدياً استعداده للعراك:

-"شو فيه ؟"

قال العاجز الجالس فوق القاطع الخشبي بلهجة ودودة:

-"ما في شي! الأستاذ انطفت سيارته، ادفشوه للأستاذ ...ادفشوه!" .

دمشق –كانون الثاني ١٩٩٢

تابوت الفحل[١٤]

رغم كل تلك السنوات التي أمضاها في الغربة، عاد عبود محرز إلى القرية، وكل شيء فيه يصرخ أنا لم أتغير! أنا مازلت الفحل!

شارباه المعقوفان المشذبان يصرخان: أنا الفحل!

نظرته الصقرية المتعالية، التي تبخش الحائط، تصرخ: أنا الفحل!

أسلوبه الملغوم في مخاطبة النساء المليء بهسهسة الجنس ووسوسة الأبالسة، يصرخ: أنا الفحل!



في مطلع شبابه، كان عبود مغتبطاً بنفسه إلى أبعد حد، فعندما كان يقف أمام المرآة، كان يطري نفسه بصوت عالٍ على مسمع ومرأى من الناس:

-"اللهم صلي وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين! بالله إنك فحل ابن فحل يا عبود! عين الحسود فيها عود، يا عبود! اسم الله عليك وحواليك يا عبود! عندك طلة، متل الفلة يا عبود! اسم الله على شواربك المفرودين متل جوانح النسر يا عبود! اسم الله على قرعتك الحرزانة يا عبود! عليم الله إذا نطحت فيها

---

[١٤] من مجموعة بعنوان (أب مستعار) دار هيا دمشق ٢٠٠٢

جبل تهده يا عبود! اسم الله على كفَّك الوازن، متل المخباط يا عبود!
عليم الله .إذا نزل على بغل يخليه ينخ يا عبود!"

كان معظم الناس يستخفون بإطراء عبود لنفسه! رغم ذلك، لم يكن هناك من يجرؤ على مواجهته بذلك، بل، كان الجميع يعاملونه بمودة، ويسعون لنيل رضاه، لأن يده فاروطية من جهة، ولأن حضوره في السهرات والأعراس كان يضفي على الجو سحراً غامضاً، ربما لأنه كان يضطر الجميع لتقديم أفضل ما لديهم، خوفاً من لسانه السليط. وهذا ما قربه من قلوب الناشئين والشبان. خاصة وأن سلوكه الاستعراضي لم يكن مصطنعاً، بل ينبثق من صميم طبعه.

في يفاعته كانوا ياقبونه بـ"البالع خازوق" . لأنه كان يسير نافخاً صدره مباعداً ما بين ساقيه، كما لو أنه يحافظ بثقله على توازن الكرة الأرضية. لكن ذلك اللقب سرعان ما اختفى وحل محله لقب الفحل! لأنه عندما وصل الى سن البلوغ و"قيَّح مخرزه" كما يقولون، كان يتفوق على جميع أقرانه في لعبة القذف الشهيرة: (خمسة باليد واحد!) التي يلعبها المراهقون في كل مكان من هذه الدنيا! ومن هنا لبسه لقب الفحل ولم يتركه أبداً، حتى بعد أن تطوع في الجيش.

في البداية لم يكن اللقب يعني له شيئاً، لكنه بدأ يتمسك به بعد أن تزوج، وازداد تمسكاً به بعد أن أثبتت التحاليل الطبية أنه لا ينجب أطفالاً .

عندما تطوع الفحل في الجيش، كان ذلك خبراً مفرحاً للجميع، فمن يحبونه، وهم قلة، اعتبروا أنه قد استطاع أخيراً أن يجد شغلا يرتزق منه. ومن لا يحبونه قالوا في سرهم بارتياح:

-"خلصنا منه! درب السد ما منه رد".

كان الفحل يحب التجديد ويعشق إبهار الآخرين! فهو الذي أدخل أول مسجلة إلى قرية بطشيت، خلال إحدى إجازاته، وقد نفذ بها مقلباً شيطانياً ظلت القرية تضحك عليه لشهور طويلة. فقد شغَّل المسجلة ثم سأل اسكندر الشهلاوي عمَّا إذا كان قد نطَّ على فهيما الدنورية أيام الحصيدة كما يشاع!؟ فلم يؤكد له الشهلاوي وقوع الأمر وحسب، بل قال كلاماً في وصف الأماكن السرية من جسد فهيما، تشيب لهوله الولدان. فما كان من الفحل إلاّ أن حمل مسجلته وذهب نحو حارة فهيما الملقبة بـ (أم لسان زفر)، وعندما انفرد بها، قرب التنور، امتدح حنيَّتها و حُسْن أدبها، ثم قال لها انه قد خانق اسكندر الشهلاوي منذ قليل دفاعاً عن سمعتها. سألته عن السبب، فأخبرها أن (العكروت) الشهلاوي، كان يتباهى في الساحة أمام الغادي والبادي بأنه قد نط عليها أيام الحصيدة!

نطت فهيما أم لسان زفر كما لو أن شخصاً ما قد شكها بمسلة في عجيزتها الضخمة المترهلة. لكنها، قبل أن تفتح مستودع الشتائم الثقيلة الخاص بها، ابتلعت لعابها ونظرت الى الفحل بتشكك، ثم شتمت أمه الكتعاء واتهمته بأنه يسعى للإيقاع بينها وبين الشهلاوي!

عندها تصنع الفحل البراءة، وبعد أن تباكى على حظه قليلاً صاح متظلماً بطريقة استعراضيه تشي بمواهبه التمثيلية:

- "آخ منكم يا بشر آخ! هنياً للمتهم وعند ربه بريء"!

أثرت رنة الصدق في فهيما، فقالت له بلهجة مهاودة:

- "بريء! انت بريء! شر عليك! ما بقي إلا تقول إنك نازل مع المطر!"

عندها انبحت الفحل وأخذ يمتدح نفسه مستضيعاً وجود شخصية معتبرة مثله في تلك الضيعة بين ناس بهائم لا يعرفون صديقهم من عدوهم! وعندما كاد صبر فهيما ينفذ، قال لها بلهجة قاطعة مانعة أنه سيسمعها كلام الشهلاوي بأذنها! سألته باندهاش كيف سيفعل ذلك، فأخرج لها المسجلة وأسمعها حديث الشهلاوي!

أصابتها المفاجأة بالجمدة! ظلت طوال الحديث فاتحة فمها تحملق في المسجلة كما لو أنها عفريت. وعندما انتهى كلام الشهلاوي كبس الفحل زر التسجيل مرة أخرى وسأل فهيما عن رأيها بما سمعته! وما أن أفاقت من جمدتها حتى جن جنونها، فلم تترك عضواً من أعضاء الحيوانات الفعالة إلا ووظفته في أقفية عائلته وعائلة الشهلاوي فرداً فرداً!

حمل الفحل مسجلته وتوجه إلى الشهلاوي، أسمعه شتائم فهيما أم لسان زفر، فانتفض كالمصعوق لدى سماعه صوتها وأخذ يتلفت إلى اليمين والشمال كما لو أنه يتوقع أن تنشق الأرض عن فهيما في

أية لحظة! وما أن انتهى كلام فهيما حتى كبس الفحل زر التسجيل مرة أخرى، وسأل الشهلاوي عن رأيه بكلام فهيما أم لسان زفر؟

كان الشهلاوي شاحباً يحدق في الفراغ كما لو أن روحه تحلق بعيداً عن جسده. ابتلع لعابه بصعوبة بالغة، وعندما أراد أن يتكلم أخذ يتفتف مالئاً الهواء باللعاب والكلام البذيء! سجل الفحل رد فعل الشهلاوي على كلام فهيما، وانطلق مباشرة إلى مضافة المختار حيث يسهر وجوه القرية، وهناك شغل الشريط من أوله إلى آخره، ثم أخذ يعيده المرة تلو الأخرى، فغرقت القرية في نوبة من الضحك الهستيري ظلت تتفاعل حتى حوالي منتصف الليل.



مضت الأيام بسرعة هائلة وبعد أن أمضى الفحل حوالي عشرين عاماً في الخدمة العسكرية، وصل فيها إلى رتبة مساعد أول ودفن خلالها زوجته في الصنمين، عاد إلى القرية، بعد خمسة أشهر من هزيمة حزيران، مسرحاً بمعلولية!

صبيحة وصوله إلى الضيعة، خرج الفحل يتمشى مرتدياً جلابية ناصعة البياض لدرجة تزغلل النظر، كان يسلم على الأهالي بطريقة استعراضية، كقائد منتصر عائد من الجبهة، مردداً عبارات المجاملة بصوت عال رنان كما لو أنه ينبه الآخرين لقدومه كي يخرجوا من بيوتهم للسلام عليه. وهذا ما أثار حفيظة شباب القرية، وخاصة المتعلمين

منهم، الذين كانوا يشعرون بالتفاهة والخزي الشديد بسبب هزيمة حزيران الشنيعة التي لم يكن قد مضى عليها سوى بضعة أشهر .

قال مدير المدرسة للأستاذ محمد وهو يتابع مرور الفحل عبر نافذة الإدارة بعينين مليئتين بالدهشة: "أما مخلوق عجيب هدا الفحل، نافش حاله كأنه راجع من تحرير فلسطين!"

والحقيقة أن سلوك الفحل لم يكن مفهوماً البتة. فهو مسرح من الجيش بمعلولية، وراجع من هزيمة مريعة تجعل البدن يكش، مع هذا، فهو يسير بعظمة وجلال، نافخاً صدره، رافعاً أنفه، كما لو أنه أبو زيد الهلالي!!

توقف تحت التوتة حيث يلعبون المنقلة، قال له أحد الشباب محاولاً اختبار امكانية التطاول عليه:

- "سمعت إنهم سرحوك بمعلولية!"

هز الفحل رأسه بعظمة كما لو أن المعلولية أمر جليل يدعو للافتخار!

قال الشاب بنزق متعمداً إهانة الفحل:

-"يا ترى شو السبب؟"

لم يجب الفحل، قال شاب آخر باستخفاف:

- "سمعت لك إنه طالع خرنتي، لادكر ولا انتي!"

كان الفحل شديد الحساسية إزاء كل ما يمس الجنس وقد تضاعفت حساسيته بشكل مرضي بعد أن شاع في القرية أنه عقيم وأن العلة منه لا من زوجته! لكنه استطاع هذه المرة، أن يكظم غيظه، كالعادة. رسم على وجهه ابتسامة صفراء، وقال للشاب مقهقهاً بصوت معدني لئيم:

- "رح اسأل أمك! اليوم الصبح سألتني عن نفس الموضوع، وجاوبتها تحريري!"

التقط الشهلاوي طرف الخيط، فتدخل قائلاً بخبث شديد، منغِّماً على نفس المقام الذي يعزف عليه الفحل:

- "..ويا ترى اقتنعت أمه بالجواب؟"

لمعت عينا الفحل بضراوة. رمق الشهلاوي بنظرة ممتنة، لأنه أعطاه الفرصة المناسبة لسحق الشاب الذي أراد إهانته، حدج الفحل الشاب بنظرة جانبية، ثم قال بما عرف عنه من خبث وسرعة بديهة:

- "تعرف، أم محمود راسها يابس، والعياذ بالله! وصعب يقنعها الواحد بأي شي! بس لما ضربت لها مثال، اقتنعت وطلبت واحد ثاني!"

التفت الفحل إلى الشاب الذي لم تبق في وجهه نقطة دم، وقال بجدية ولؤم:

- وإذا كان عندك شك، انت الثاني، فأنا مستعد اضرب لك أمثلة تحريرية، حتى تقتنع!"

هكذا سحق الفحل الشاب كما لو أنه برغشة ساهية على سطح زجاجي. فكانت تلك هي آخر مرة يحاول فيها أي شخص التطاول عليه.



خلال الأيام الأولى توجس المختار خيفة من الفحل لأنه ظن أنه يريد أن يأخذ منه المخترة، فالفحل ملّسنٌ والعياذ بالله وهو فوق هذا يحمل الشهادة الابتدائية، وابن حكومة! شعر الفحل بمخاوف المختار فقصده في بيته وبعد أن طمأنه على المخترة، أفهمه أنه غير طامع في شيء من الدنيا الفانية سوى العثور على ابنة حلال تستر شيبته. أثنى المختار على رجاحة عقل الفحل، لأن المخترة برايه مثل سيران الكلاب (كثرة غبرة وقلة واجب). وبكثير من الدهاء جاء المختار على ذكر أخته الأرملة عرضاً، فالتقط الفحل طرف الخيط. وهكذا أصبح الفحل صهر المختار وصارا فقتين في لباس واحد، كما يقول المثل.

في الأماسي، كان الفحل يتحدث عن الأشياء العجيبة التي رآها خلال خدمته العسكرية الطويلة التي أمضاها متنقلاً في كل أنحاء سورية. كان يروي النوادر والحكايات بلهجة المناطق التي تجري فيها الأحداث، وكان فناناً في تقليد اللهجات، يرفع صوته حيناً ويخفضه حيناً آخر،حسب مقتضى الحال، مما كان يضفي على كلامه الكثير من الإثارة والتشويق. وهذا ما جعل المختار وجلسائه يدمنون سماع أحاديثه الشيقة، ويفتقدونه عندما يتأخر في المجيء إلى السهرة. فإذا ما تأخر أكثر من المعتاد، كان المختار يرسل ابنه لدعوته، حتى بات في نظر الجميع أهم شخص في القرية.

في أواخر الشتاء توفيت الداية خيزران، فنقلوها على نعش بدائي إلى المقبرة، وبسبب الطريق المنحدر، كادت جثة خيزران تقع من النعش. يومها جاء الفحل إلى بيت المختار في المساء وعلى وجهه علائم الامتعاض. قال: "نشدتكم بالله يا جماعة جاوبوني، نحن بشر، أم بقر!؟"

فوجئ الجميع بالسؤال، لكن الشهلاوي قال بخبث: "ألله أعلم"!

امتعض الفحل من موقف الشهلاوي الذي يريد تمييع الجو، فقال بحزم: "لا سيدي، نحن بقر"!

بعدها شرع الفحل يشرح للموجودين سبب هذه الشتيمة المقذعة التي وجهها لنفسه وللجميع! قال إن أهالي الضياع المتحضرة يحترمون الموت ولا ينقلون موتاهم إلى المقبرة على السلالم كما نفعل نحن! بل ينقلوهم في توابيت ظريفة، من خشب الزان، تحفظ للموت هيبته!

وافق الجميع ظاهرياً على كلام الفحل كنوع من المجاملة، فطالبهم بحزم أن يجمعوا ثمن تابوت للضيعة وتطوع هو بالنزول إلى المدينة كي يحضر لهم أحلى تابوت!

شعر الفحل ببعض الفتور، بين كبار السن خاصة، فأخذ يحدثهم عن أهمية الموت وعن ضرورة تفصيل تابوت للضيعة من خشب الزان الفاخر. وظل يلح عليهم حتى استسلموا وأقروا بصوابية فكرته! وبما أن الفحل لم يكن يعرف كلفة التابوت، على وجه التحديد، فقد أعطاه

المختار في آخر السهرة مبلغاً من المال، كسلفه، وكلفه بالنزول إلى المدينة لتفصيل تابوت للضيعة يضعها في مصاف الضياع المتحضرة.

لم يضيع الفحل وقته فانطلق إلى البيت ليهيئ نفسه للسفر. وفي الصباح كان متصدراً في المقعد الأول من البوسطة.

استطاع الفحل أن يستدل بسهولة على محل صانع التوابيت في المدينة. وقد بدت عليه علائم السرور الشديد عندما وجد عند النجار ثلاثة توابيت جاهزة، اقترب الفحل ينقر التوابيت بقفا يده، كما لو أنه خبير بالخشب، ثم شرع يفاصل النجار السبعيني على واحد منها قال النجار بلهجة حاسمة:

- "يا أخي الشغلة كلها قضاء غرض! يعني بالعربي الفصيح ما فيها مفاصله! فإذا عجبك التابوت كان به، ما عجبك، الله معك!"

قال الفحل مظهراً شطارته:

- "يا أخي البيع أخد وعطا فخد نفس وسايرنا بكم كلمة!"

عندها قال النجار بلهجة حاسمة يمتزج فيها الهدوء بالطيبة:

- "أخدنا نفس! يا عمي، الموت ما فيه مفاصلة! إذا عجبك التابوت خده، ما عجبك، الله معك، تيسر شوف غيرنا"

ابتسم الفحل للنجار العجوز وقال معجباً بمبدئيته:

- "باين أنك أكابري وابن حلال! وأنا رح ادفع لك مثل ما طلبت وحبة مسك، شرط تنقي لي تابوت أكابري مثلك".

ارتسمت ابتسامة طفيفة على وجه النجار. دفع الفحل ثمن التابوت، وبينما كان الصنايعية يحملونه إلى باب المحل لاحظ شيئاً ما على التابوت، فجحظت عينا الفحل. صرخ:

- "هوب! هوب! كل واحد مطرحه!"

وضع الصنايعية التابوت أرضاً مندهشين، بينما اقترب النجار وهو يقول متسائلاً:

- "خير يا أخ ؟ لا يكون التابوت ما عجبك؟"

أطلق الفحل ضحكة مجلجلة بينما وقف النجار يرمقه بنظرة متوجسة، قال مشيراً إلى صليب مثبت على التابوت:

- "لا،يا عمي! التابوت كيِّس تمام! لكن...الصليب!"

قال النجار باستغراب: "إيش به الصليب، ما عجبك؟!"

قال الفحل من خلال الضحك: "لا يا عمي، الصليب،على راسي وعيني، بس القصة شي تاني!"

قال النجار بنفاذ صبر: "ياأخي شو القصة!"

توقف الفحل عن الضحك، قال بجدية مفاجئة: "القصة يا مولانا إنه نحن إسلام! وما يجوز يكون على تابوتنا صليب!"

ذهل النجار، عند هذا الحد تقدم نحو الفحل أحد الصنايعية الشباب، وهو ابن صاحب الورشة، قال بلهجة جافة:

- "الصراحة، توابيتنا كلها عليها صلبان، انت يلزمك تابوت تفصيل".

سأل الفحل ببساطة كم ساعة يستغرق تفصيل التابوت، وعندما علم إنه يستغرق ثلاثة أيام، على الأقل، فتح حنكه على آخره مطلقاً صفرة خافته!

تحسس الفحل الصليب بيده ثم قال:

- "يا ترى فيك تشيل ها الصليب...؟"

قال ابن النجار بنزق:

- "لا يا عم، رح شف غيرنا! هاد الصليب ما ممكن ينشال، خد مصاريك، وتيسر!"

التفت الشاب إلى والده قائلاً بلهجة تشبه الأمر: "بابا، إزا بتريد رجّع له مصاريه!"

مدّ النجار يده إلى جيبه الداخلي وأخرج رزمة النقود كما أعطاه الفحل إياها، لم يمد الفحل يده لأخذ النقود. قال ببساطة:

- "يا أخي، الله واحد، خلق المسلم مثل ما خلق المسيحي، والمسيحي والمسلم لابد يلتقوا قدام الواحد القهار، فشو فيها إذا سايرتني وشلت ها الصليب!! ما كلنا أولاد تسعة!"

أعاد النجار العجوز النقود إلى جيبه،وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة، قال الابن بنزق:

- بابا، بترجاك، ترجع له مصاريه!

قال النجار العجوز لابنه، بهدوء وحكمة:

- "القلب يا ابني هو بيت الإيمان! والميت ميت! إن كان مسلم ولاّ مسيحي!"

لم يصمد الشاب أمام نظرة أبيه المؤنبة فأطرق أرضاً،عندها التفت النجار العجوز للفحل قائلاً:

-" تيسَّر أخي، رح، دور على مصالحك لبين ما جهز لك التابوت"

ارتسمت على وجه الفحل ابتسامة عريضة راضية، رفع يده مودعاً بطريقته الاستعراضية:

- "راجع لك بعد ساعة!"

ابتسم النجار العجوز مستظرفاً شخصية الفحل:

- "لا، ساعة قليل! لا ترجع قبل ساعتين ... حتى ينشف الدهان!"

لم يحجز الفحل مكاناً في بوسطة الضيعة الوحيدة، التي تنزل إلى المدينة في الصباح، وتعود منها بعد الظهر، رغم علمه بالازدحام الذي يحصل يوم الخميس بسبب طلوع الطلاب والعساكر والموظفين إلى قراهم، لأنه في دخيلة نفسه يتمنى أن تمتلئ البوسطة بالركاب كي يسمح له السائق بالركوب على سطحها، فالمناظر من هناك تسر العين، والهواء يشرح الصدر.

وضع الفحل التابوت على سطح البوسطة وراح يتملى خشبه اللماع بعينين فخورتين ماسحاً سطحه الصقيل براحة كفه. رمقه السائق بنظرة ودودة وقال باحترام:

- "الطلعة على الضهر ما حلوة بحق الفحل! تعال اقعد جنبي أحسن لك!

هز الفحل رأسه بالنفي، قال باستخفاف:

-"يخزي العين، البوسطة لها إشكمان واحد! أما ركّابك، فكل واحد منهم له إشكمانين، واحد من فوق وواحد من تحت!"

قال السائق برخاوة:

- "اسمع مني فوت جوا! لأنه السما مغيِّمة وشامم ريحة شتي!"

رد الفحل على السائق باستهزاء:

- "إي فوت! ريتك تشم ريحة فطيستك! خذ إجرتك وسكر على الباقي! أنا مراقي اركب على سطح البوسطة، وما دخلك، ان شاء لله تشتي زمهرير!"

انطلقت البوسطة تنهب السهل الساحلي متجهة صوب الجبال. كان الهواء البارد المنعش يداعب، وجه الفحل ويتسلل عبر فتحة قميصه فيغمض عينيه بانتعاش، التهم بعينيه نباتات القصب ذات الأوراق الذهبية وهي تتأرجح في الريح، مسح السهل الذي يموج كما بحر يخبئ عاصفة ثم صرخ فجأة بسعادة غامرة: "آخ يا أمي"!

وفي تلك اللحظة التي كان يواجه فيها السماء سقطت قطرة مطر على جبينه، وبعدها انهمر المطر غزيراً. لم يقرع على سطح البوسطة، كي لا يشمت السائق به، ولم يتوقف السائق من تلقاء نفسه، بل مط عنقه عبر النافذة وقال بشماتة:

- "شفت! قلت لك شامم ريحة شتي! بكون حمار إذا وقفت لك قبل ماتبوس يدي!"

أهوى الفحل براحة كفه على صلعة السائق، وقال مقهقهاً بفجور:

- "خليك ماشي يا ..حمار!"

نظر الفحل إلى نقاط المطر التي ترتطم بخشب التابوت، وفي تلك اللحظة لمعت عيناه إذ خطرت بباله فكرة جهنمية. رفع غطاء التابوت، تمدد داخله ثم أعاد الغطاء إلى مكانه.

أحس الفحل بالدفء داخل التابوت فأغمض عينيه وراح يضحك مرهفاً سمعه لدبيب المطر. استيقظ في داخله حبه الأول الذي كان المطر حارسه الأمين. تذكر كيف كان يستغل لجوء الناس لبيوتهم أثناء انهمار المطر فيذهب للقاء حبيبته في مغارة الشير. توالت الذكريات. كان الفحل قد أمضى جل نهاره وهو يتجول في أسواق المدينة، على غير هدى، ريثما ينتهي النجار من تحويل التابوت من المسيحية إلى الإسلام، وبسبب الإرهاق وهزهزة السيارة ودبيب المطر على خشب التابوت دب النعاس في عيني الفحل، فاستغرق في نوم عميق!

أثناء نومه خف هطول المطر حتى غدا نفيفاً. وصلت البوسطة إلى مفرق القرية الذي ينزل عليه القادمون من دمشق. كان ينتظر على المفرق عسكريان عائدان إلى القرية في إجازة، وهما صديقان وابنا عم، سلم السائق على العسكريين بحرارة شديدة ودعاهما للركوب وقوفاً داخل البوسطة، مط العسكري الأول ويدعى عز الدين رأسه نحو الداخل، فزكم أنفه مزيج عجيب من الروائح الكريهة. قال بمرح: "لا، ما حزرت! رح نطلع لفوق نشم ريحة ربنا، أحسن من ها البلاوي!"

تسلق الجنديان سلم البوسطة وهي تنطلق على الدرب الجبلي المتعرج. جلسا على الدولاب الاحتياطي. وبعد أن حاولا أن يخمنا من الميت المسجى في التابوت، أخرج عز الدين علبة سجائر ستار ومدها لابن عمه سليمان. أخذ سليمان سيجارة وأشعلها كما قدم الولاعة لعز الدين كي يشعل سيجارته. استيقظ الفحل من سهوته داخل التابوت بينما كانت البوسطة تقترب من جسر حجري قديم على النهر مخففة من سرعتها. كان الجنديان ينفثان دخان سيجارتيهما باستمتاع.

شفط عز الدين الدخان من سيجارته، لكنه شهق فجأة فاتحاً حنكه عندما سمع صوت رجل يتثاءب داخل التابوت! نظر إلى ابن عمه فوجده في وضع عادي كما لو أنه لم ينتبه للصوت، قوس حاجبيه متسائلاً في سره عما إذا كان قد تخيل الصوت الذي سمعه. همس عز الدين بغرابة: "سمعت شي؟" رد سليمان بلهجة متهكمة:

"إي سمعت قلبك عم يرفس بصدرك ويصيح:

خـــــدوجا يابنـــــت العـــــم   عافراقـــك دبحـــــني الهـــم!

هز عز الدين رأسه مبتسماً لذكر حبيبته خدوج، قال بانشراح: "أي والله صدقت ...على فراقها دبحني الهم!"

شرد عز الدين وراح يتصور بعذوبة بالغة كيف سيكون لقاءه الأول مع ابنة عمه خدوج بعد خمسة أشهر من الغياب.

وبينما كانت البوسطة تجتاز الجسر العالي المنتصب فوق النهر الذي لايجري إلا في الشتاء، تثاءب الفحل داخل التابوت مرة أخرى، فأفاق عز الدين من حلم اليقظة اللذيذ دفعة واحدة، نظر إلى ابن عمه سليمان فرآه يحدق في التابوت بعينين جاحظتين. في تلك اللحظة مد الفحل يده إلى خارج التابوت ليرى ما إذا كان المطر قد توقف! وما أن رأى الشابان اليد تمتد نحوهما من داخل التابوت حتى استبد بهما الذعر وقفزا عن ظهر البوسطة كما لو الشيطان يطاردهما.

لاحظ أحد الركاب أن شيئاً ما قد سقط عن ظهر البوسطة فطلب من السائق التوقف. انحدر الركاب من البوسطة فرأوا المجندان ممددان والدم ينزف منهما على قاع النهر الجاف المغطى بالزلط الأبيض.

كان سليمان يحاول الوقوف ممسكاً بيده المكسورة والدم ينزف من رأسه ويغطي وجهه، بينما عز الدين ممدد على القاع بلا حراك تلمس سليمان نبض عز الدين، وعندما وجد أن قلبه قد توقف، أطلق صرخة مقلوبة، ردد الوادي صداها، فدب الذعر في قلب

السائق والركاب. صرخ السائق بهلع شديد، وكان أول الواصلين: "ياويلي! ياويلي! إيش رماكن ها الرمية!؟"

غمغم سليمان بذهول وذعر: "الميت اللي بالتابوت قام!"

جحظت عينا السائق قال كالمنوم: "بس التابوت فاضي! ما معنا ميت".

لمعت الفكرة في راس سليمان، التفت نحو الجسر فرأى الفحل واقفاً على سطح البوسطة، إلى جانب التابوت، ينظر إلى ما يجري بذهول، كمن لا يفهم شيئاً. غمغم سليمان بحقد وهو يشفط الهواء من بين أسنانه:

- "هو السبب"!

وفجأة انطلق سليمان يعدو نحو البوسطة بكل ما في جسده من قوة. كان الجميع يراقبونه بذهول غير عارفين ما لذي يمكن أن يفعل، ظن الفحل أن سليمان يريد مساعدة ما منه فنزل عن ظهر البوسطة وبينما كان يلتفت لملاقاته وجد سليمان يمسك مسدسه الحربي بيده اليسرى السليمة. غمغم بتوجس:

- خير، أخي سليمان ؟"

كزَّ سليمان على أسنانه ووجهه يمور بالقرف والقسوة. أطلق صرخة وحشية وراح يطلق النار من مسدسه على الفحل. أحس الفحل بأسياخ من النار تخترق صدره، غمغم بذهول: "اللّه يسامحك!"

ثم تكوَّم أرضاً ومات!

حكى السائق للمختار ووجوه القرية بطريقته المشوشة، كيف وقعت الواقعة، لم يفهم أحد منه شيئاً . أطلق المختار تنهيدة حزينة وقال: "الحكي ما منه نفع! المهم، الجماعة ارتحموا، وإكرام الميت دفنه!"

وبينما كانت الشمس تميل للغروب خرجت من بطشيت جنازتان: الأولى في تابوت فاخر من خشب الزان، والثانية في نعش عادي. وقد خرجت الضيعة برمتها خلف الجنازتين. قال شيخ طاعن في السن لشيخ لآخر يسير بخطوات متثاقلة الى جواره: "صار عمري أكتر من ثمانين سنة، وما بحد طول عمري إنه طالعنا جنازتين سوا!"

هز العجوز الآخر رأسه قائلاً بشرود : "آللّه يرحم الفحل! ظل يسعى بقصة التابوت، حتى انتهى فيه!"

تُدَيِّن تُدَانْ[15]

عندما سمعت فهيما ابنها البكر مصطفى يقول إن أصل الانسان قرد لم تلعن أبوه وأبو المدارس وأبو الذي تسبب في بنائها،كعادتها، بل حطت يدها على خدها وشردت مع أفكارها. وقد خيّب هذا أمل سليم، رفيق ابنها مصطفى،الذي لا يأتي لزيارتهم إلاّ عندما تحكه عظام أجداده، فهو يتلذذ بشتائم فهيما التي تنزل على قلبه كالعسل!لذا يحاول أن يستغضبها، كي تلعنه وتلعن سنسفيل أجداده. يومها، كانت عظام أجداده تحكه! لذا تظاهر بالغضب الشديد، وصاح في وجه صديقه متفتفاً ناثراً لعابه في الهواء كالجمل الهائج:

- "قرد ياخدك وياخد هالحكي! الانسان أصله قرد ياضلالي! الإنسان قرد! أعوذ بالله! هذا كلام ملاحده كفّار! مايخافون المنتقم الجبار! سامعة ياخالتي فهيما؟! سامعة كلام ابنك!"

لمعت عينا سليم متوقعاً أن تمطر فهيما وابلاً من الشتائم عليه وعلى ابنها وعلى المدارس وعلى علومها الكافرة، لكن ظنه قد خاب، إذ نظرت فهيما اليه ببرود وقالت له بلهجة مؤنبة :

- "عَمّال تفتري على رفيقك ياحرقوص الحصيدة، يامنتن! إي لكن ياعمي، صدق المثل: أبوك بصل وأمك توم فمن اين رح تجيك الريحة الطيبة ياوجه الشوم".

---

[15] من مجموعة (أب مستعار) دار هيا دمشق ٢٠٠٢

ضحك سليم ملتذاً بهذه الشتيمة، قال متصنّعاً الانزعاج:

- "أنا بعمري ماافتريت عليه! ماسمعتيه عمّال ينطق بالكفر قدّامك!؟"

- "واين الكفر بكلام مصطفى ياابن عزيزة القرعة وعبود المعنطز؟!"

استبشر سليم خيراً بهذه الشتيمة، قال متظاهراً بالانزعاج:

- "ماسمعتيه عمّال يقول انه أصل الانسان قرد!؟

قالت فهيما :

- "وما له القرد، بسلامتك؟ ماهو خاقة الله متلك ومتله! أشهد بالله، انه قرد واحد بيسوى عشرة نسانيس من شكلك وشكله!"

عندها حملق مصطفى في وجه أمه دهشاً، ثم ألقى خطاباً مجّد فيه موقفها المتفهم للنظرية الداروينية، معتبراً ذلك بمثابة انتصار للعلم، ودليل ساطع قاطع على انها ابنة أصل. غمز مصطفى سليم فأمسك الآخر بطرف الخيط وقال بحماس:

- "عليّ ماعليّ انك كنتي في الجيل الماضي عالمة كبيرة مثل ماري كوري."

نقزت فهيما عندما سمعت كلمة" كوري" صرخت في وجه سليم بغيظ واستياء:

- "متل كورك يابزونك، ياأندبوري، ياقليل الأدب! الله يلعن أبو النّفضك! ياشرشوح يابو لسان زفر!"

حاول سليم أن يفهم فهيما أن ماري كوري عالمة كبيرة ومشهورة في الدنيا كلها، لكنها لم تسكت إلاّ بعد أن غسلته بوابل من الشتائم المقذعة التي لم توفر "كوراً" في عائلته. لكن ذلك لم يشبع نهم سليم لشتائم فهيما. وما أن خيم الهدوء مجدداً حتى حدق سليم في وجه رفيقه مصطفى، ثم قال متظاهراً بالجدية والاندهاش كما لو أنه قد اكتشف أمراً خطيراً.

- "تعرف؟ الباين انه كلامك مظبوط! إي بشرفي!"

التفت سليم إلى فهيما ثم مد يده إلى أذن ابنها مصطفى وشدها إلى أعلى كمن يقوم بتجربة في الكيميا! ثم قال:

- "يخزي العين أدنه ما أطولها! شوفي، شوفي! أكيد هالشي دليل على أنه أصل الإنسان قرد!"

قال مصطفى غامزاً سليم من طرف خفي:

_ "أنا مخوَّل! بشبه خالي هاني الخالق الناطق!"

لم تكن فهيما معجبة بابنها مصطفى، لأنه، مثل أبيه، رخو مع نفسه، قاسٍ مع الآخرين .وهو فوق ذلك قنّاص فرص لايوفر أحداً، حتى أمه وأبوه! لذا شعرت بالغضب عندما رأته يغمز سليم من طرف خفي كما لو أنه يستخف بها، فما كان منها إلاّ أن زمت شفتيها وقالت لابنها محوّصةً عينيها:

- "أنا ما أعرف إذا كان أصل الناس قرود، مثل ماعمّال تقول،

يانطفه حرامه! لكن أنا متأكده، انه انت، وختيار النحس أبوك! ما أصلكم قرود .. أصلكم، أولاد أفاعي!"

لم يندهش ابنها لسماع كلامها بقدر دهشتها هي! فقد عاشت حياتها خانعة، طائعه، خاضعة، لها فم يأكل، لا فم يحكي! وها هي فجأة بعد عشرين عاما من الخنوع والطاعة تشتم زوجها، أمام ابنها ورفيقه!

كانت متأكدة أن ابنها الرخو النمّام، سوف ينقل الكلام لأبيه الذي لا يعرف الرحمة ،لذا توقعت أن يستغل الأب غياب أولاده عن البيت عصر ذلك اليوم، وينهال عليها ضرباً بنصاب الفأس، فيطرحها في الفراش لبضعة أيام، كما فعل في الماضي مراراً.

مضى الوقت ثقيلاً، مليئاً بالهواجس، وعندما رأت فهيما زوجها متجهاً نحوها في الموعد الذي توقعته، أيقنت بدنو عقابها. وغمغمت في سرّها: "جاك الموت ياتارك الصلاة!"

كان وجهه شمعياً، متشنّج العضلات، شديد الشّحوب. وقد أعماها خوفها، في البداية، عن رؤية التغير الذي طرأ على هيئته، فانكمشت منتظرةً ما سيبدر منه. اندهشت عندما رأته يتهالك إلى جانبها على الكرسي، بدلاً من أن يحضر نصاب الفأس من وراء الباب ويشبعها ضرباً كعادته. نظرت إليه بعينين متفحصتين، فلم تكد تتعرف فيه على زوجها الجبّار الذي أذاقها المرّ منذ أن مات حبهما قبل سنوات طويله. كان سلوكه غريباً، لذا ظنت أن أمّه التي تعيش في بيت أخيه قد أصابها شر.قالت له بجزع:

- "أمك بها شي!؟"

هزّ رأسه بالنفي، مسبلاً عينيه، راخياً فكّه، كاشفاً أسنانه النّخرة المسودّة من فرط التّدخين، مرهفاً سمعه كما لو أنه يحاول انتشال ذكرى مطمورة بالطمي في أعماق روحه المليئة بالأشباح والظلال.

- "مالك يابن الحلال! إحك سيّحت ركبي!"



- "عفوك يارب!، العمر راح، كأنّا لارحنا ولا جينا!"

في الفترة الأخيرة بدأت أحس أن يداً ما، تمتد إلى جيوبي أثناء نومي أو أثناء غيابي عن البيت وتختلس ما أتركه فيها من نقود، وقد تأكدت من ذلك أوّل البارحة تماما، فقد تركت في جزداني خمسمئة وخمسون ليرة، وعندما عدت، لم أجد في الجزدان سوى خمسين ليرة فقط، كنت متأكدا أن الفاعل هو إما زوجتي، أو ابني مصطفى! ولأني لم أستطع أن أعرف، بشكلٍ قطعي أيهما الفاعل، فقد وضعت في ذلك اليوم، خمسمئة ليرة أخرى في الجزدان على مرأى منهما كليهما، ثم خرجت، للعب المنقاله، كعادتي عصر كل يوم. لكني بدلاً من الذهاب للعب المنقاله في بيت محمود الشب، درت حول البيت بسرعة وعدت اليه خاسةً، دخلت إلى الغرفة الوسطى، المعتمة، التي تستعمل كزريبة وكمخزن للتبن. وقفت خلف الباب الواصل بين الغرفتين، كاتماً أنفاسي، منتظراً مجيء الحرامي، كي أفشّ غلّي فيه!

مضت ربع ساعة وأنا أنتظر وراء الباب، وعندما يئست تماماً من

قدوم الحرامي، ومددت يدي إلى الباب أريد الخروج، سمعت وقع أقدام تقترب، وضعت عيني على ثقب المفتاح فرأيت ابني مصطفى يدخل إلى الغرفة الأخرى، على رؤوس أقدامه متلفتاً حوله. اتجه صوب الجاكيت المعلقة بمسمار إلى الجدار. التفت إلى الخلف، ثم مد يده إلى جيب الجاكيت الداخلي وأخرج الجزدان.

سحبت الباب بعزم مندفعاً نحو ابني المنهمك بإخراج الخمسمئة ليرة من الجزدان. بهت الولد عندما رآني، فوقف في مكانه وقد شلّته المفاجأة. أطبقت بيدي على صدره، لففت قميصه على يدي وهززته صارخاً :

- "ابن الكلب! علّمناك بالمدارس حتى تصير حرامي!"

دفعني محاولاً التملص من قبضتي،فما كان مني إلاّ أن رفعت يدي وأهويت بها على خده.

صاح بي:

- "لا تضرب!"

رفعت يدي أريد صفعه مجدداً فأطبق بيده على معصمي صائحاً بلهجة مهددة:

- "قلت لك لا تضرب!"

رفعت يدي فرفع يده..!

حلمك يارب! خمس وثلاثون سنة ... كأنا لارحنا ولا جينا!

كان قمباز أبي معلقاً في نفس المكان، وقد جئت كي أفعل نفس الشيء، فاندفع أبي نحوي من نفس الباب، وأمسكني نفس المسكة، وهزني نفس الهزة، وصفعني نفس الصفعة، فصحت به بنفس الكلمة: "لاتضرب". وعندما حاول ضربي من جديد كما حاولت ضرب ابني، أطبقت بيدي على معصمه وصحت في وجهه بنفس الكلمات:

- "قلت لك لاتضرب!"

وعندما رفع يده، رفعت يدي...!

حلمك يا حليم! كأنا لا رحنا ولا جينا!!

هزت فهيما زوجها وقد أفزعها شحوبه الشديد، صاحت فيه بلوعة:

- "احكِ يابن الحلال!قطعت قلبي! إحكِ!

حملق إبراهيم في الفراغ وهو يرى تلك الذكرى تنبثق من أعماق ذاكرته المليئة بالطمي والأشبح والظلال. ارتعشت شفته السفلى، وتشنج حنكه كما لو أنه يختنق أو يوشك أن يعوي.

لم تكن فهيما قد رأت زوجها في مثل هذه الحالة مطلقاً فأخذت تهزه من كتفيه وقد انتابها الذعر:

- "بسم الله الرحمن الرحيم ! مالك يابراهيم!؟احكِ، قطعت قلبي!"

ابتلع إبراهيم لعابه بصعوبة هائلة، ثم نظر الى زوجته وقد اخضلت عيناه بالدموع. كان في عينيه اعتذار وشيء من الحنان القديم، انفجرت فهيما بالبكاء:

- "احك يابراهيم! قطعت قلبي!"

"حلمك يارب! نفس النظرة، نفس الحركة، نفس الصرخة، نفس رفعة اليد !!"

غمغم إبراهيم بصوت مسموع:

-" والله لو ضربت أبي لكان ضربني!"

سألته فهيما بلهفة:

- "قصدك مين؟!"

هز رأسه بشرود، غمغم قائلاً:

- "هي حكاية قديمة!قديمة كتير، كتير!"

غمغمت فهيما بقلق:

- "ماعم افهم عليك!كأنك عم تحكي بالتركي!"

هز رأسه بأسى، تنهد كمن يرى عمره ممتداً خلفه، قال بلهجة متحسّرة:

- "إي، لاتواخذيني ياأم مصطفى، أنا طول عمري كنت احكي بالتركي!"ثم نهض متثاقلاً، وسار نحو بيت محمود الشب حيث اعتاد أن يلعب المنقلة عصر كل يوم!

شباط ١٩٩٤

أب مستعار[16]

- "السكين وصلت للرقبة! والسكوت صار أصعب من الموت!"

بهذه الكلمات يشق سلمان محرز الدُمَّل الممتلئ بالقيح داخل الجميع! يخيم صمت عميق مفاجئ على الجلسة الصاخبة! تتبادل العيون ظلال كلام غير مباح. يتوفز المختار في ثيابه الداكنة متخشباً فوق الكرسي! تتحفز حواسه كما لو أنه أفاق فجأة ليجد أفعى عقد جوز في عبه. يشفط الهواء من خيشوميه المفلطحين، فيشم رائحة القمح المحصود المكدّس خلف البيت. ينعب غراب بين أغصان شجرة البلوط العملاقة فتردد الجبال صدى نعيبه الدميم! يشحب المختار ويزداد انكماشاً معتبراً نعيب الغراب نذيراً شؤمٍ وشر! يغمغم بصوت مشروخ بعد أن يلعق شفتيه المقشبتين.

- "يا جماعة الخير، اتركوا لي مهلة حتى احكي مع الأستاذ، الأستاذ ما قصده يضركم! أكيد ما عنده علم بالحالة."

يقطب سلمان محرز، يقول بلهجة حاسمة:

- "إذا ما عنده علم، لازم نعلمه، ضيعتنا بلا العين،ما تسوى بعرة!"

يفرك المختار يديه بحرج، يقول بلهجة مداهنة:

---

[16] من مجموعة بنفس العنوان – دار هيا، دمشق ٢٠٠٢

- "يا جماعة، كرمى لأحبابكم أجلوا الموضوع لبكرة، اليوم الأستاذ عنده عزيمة! كل المسؤولين بالمحافظة عنده. يعني بصراحة، الوقت ما مناسب!"

يجيب سلمان محرز بلهجة قاطعة:

- "كلام الحق مناسب لكل وقت! لازم الحفارة تقف عن الشغل! لأنه مية العين صارت عكرة! معنى الكلام إنه الحفارة وصلت لأصل النبع، وإذا أجلنا الموضوع،ولو ساعة، ممكن الفاس يقع في الراس وتنشف العين! وساعتها لا أنت ولا أستاذك ممكن تنفعونا!"

تعلو همهمات الموافقة والاستحسان يصيح فهد بو وطفه الأربعيني الأصلع وهو يرتجف من فرط الحماس:

- "أنا برأيي نحرق الحفارة ونطمر الجب!"

يلتفت سلمان محرز إلى الرجال المحيطين به،ثم يقول برصانة آخذا إهاب الزعيم:

- "لا، يا جماعة! قبل ما نعمل أي شي لا زم نشوف الأستاذ، حتى ما يقع علينا العتب. وإذا ما تجاوب معنا، ساعتها، كل من له نبي يصلي عليه".



"حلال على الشاطر!"

بهذه العبارة يغمغم معظم أهالي "أم العناقيد" في سرهم عندما

يرد ذكر ابن قريتهم الأستاذ حسين سلمان، الذي قصد العاصمة لطلب العلم قبل ربع قرن. ثم عاد منها راكباً سيارة شبح!

إثر زواج أمه في قرية مجاورة، أحس حسين، بفطرته السليمة، أنه قد بات صيداً سهلاً بالنسبة لعمه الطامع بحصة المرحوم والده من الأرض! لكنه لم يكن قادراً على فعل أي شيء.

لاحظ حسين أن لون عمه يتغير عندما يمتدحه أي شخص لأي سبب! لذا بدأ يهمل دروسه عمداً، بحيث لا يكون من الأوائل! لأنه أدرك، في وقت مبكر، أن التباهي بالذكاء، ليس من الذكاء في شيء، خاصة لمن هو ضعيف مثله. لأن عمه، يستطيع أن يمنعه من إكمال تعليمه في أية لحظة! لذا، تظاهر حسين بشيء من البلاهة، وأفهم عمه بشكل غير مباشر أنه لا يحب الزراعة ولا يكترث لأمر الأرض؛ وأن حلم حياته هو أن يأخذ الشهادة الثانوية كي يصبح موظفاً في المدينة.

هكذا تعود حسين أن يخبئ ذكاءه كما لو أنه سلاح غير مرخص! وقد موه حقيقته عن الجميع،عدا أمه، فاستطاع ببراعة مُمَثِّل محترف أن يقنع الأهالي بأنه شخص خدوم مخلص يحتفظ بمشاكله لنفسه، ولا يطلب شيئاً من أحد، كما خبأ طموحه، الذي لا حد له، وراء ابتسامة طيبة تمتزج فيها السذاجة بالهبل!

إثر نجاح حسين في الشهادة الثانوية بعلامات جيدة،بدأ العم يشعر بالقلق من ابن أخيه، خاصة بعد أن سمع عن لسانه أنه ينوي متابعة الدراسة في جامعة دمشق. أمضى العم ليلة نجاح حسين وهو

يتقلب في فراشه، متسائلاً بقلق: هل حسين أهبل أم يدعي الهبل؟ وعند صياح الديك،فجر ذلك اليوم، قرر العم أن يزوج ابن أخيه من ابنته الدميمة حسنا، الملقبة بالعمشا، فيصيب عصفورين بحجر واحد؛إذ يؤمّن عريساً لابنته العانس البائرة، ويضع ابن أخيه تحت نيره إلى الأبد!

ذهب حسين لزيارة أمه مرتدياً ثياب العرس الجديدة التي اشتراها له عمه،راسماً في ذهنه خطة محكمة؛ كان يعلم أن أمه لا تحب حسنا العمشا، لكنه لم يكن يتصور أنها تكرهها إلى هذا الحد! فما أن أطلعها على نية عمه لتزويجه منها،حتى صرخت مولولة:

"ويلي أنا، الويل لي! القردة تتزوج الغزال!"

هز حسين رأسه بمسكنة وإذعان، ثم قال بحزن وانكسار: "صحيح إنها بشعة ومخطتها شبر، وأكبر مني بالعمر، لكن ما باليد حيله! إذا ما سايرت عمي، رح يقلب نهاري ليل!"

رمق حسين أمه بنظرة سريعة يريد أن يعرف مدى تأثرها بكلامه، فوجدها مبهوتة شاحبة. تابع متظاهراً بالمسكنة: "على كل حال، واجب ابن العم، يستر على بنت عمه"!

انطلت الحيلة على الأم. صاحت بغيظ وقهر: "بالله الذي لا إله إلا هو إذا صار وتزوجت، ها القردة العمشا، بعمري ما رح خش بيتك"!

لوى حسين عنقه بحيث بدا مثيراً للشفقة إلى أقصى حد. قال وهو يرمق أمه من طرف عينه: "إذا ما ودّك إني أتزوج العمشا، دبّري

لي مصاري حتى روح كمّل تعليمي بالشام".

هكذا استطاع حسين بكل يسر أن يقنع أمه بأن تعطيه كل مدخراتها من المال، ثم هرب، بثياب العريس، إلى الشام قبل زفافه على حسنا العمشا بيومين.

في اليوم التالي لوصوله إلى دمشق سجل حسين نفسه في قسم اللغة الإنجليزية. وقد اكتشف أن المبلغ الذي تعتبره أمه (تحويشة العمر) لن يصمد طويلاً، فبعد دفع نفقات السفر ورسم التسجيل في الجامعة، لم يبق معه سوى مبلغ هزيل لا يكاد يكفي لشراء الكتب المقررة!

بات حسين أيامه الأولى عند عريف متطوع من أبناء قريته، يسكن غرفة ترابية في حوش طيني على طرف أحد بساتين جوبر. ولأنه يعلم أن الضيافة يجب أن لا تطول، فقد ذهب إلى مقر اتحاد الطلبة في الجامعة، وفي المكتب التنفيذي، التقى بحمد حمدان الذي سيصبح صديق عمره لاحقاً. كان حمد لوحده في المكتب، مما شجع حسين لأن يحكي له قصته دون أن يخفي عنه شيئاً. في البداية، ضحك حمد من أعماق قلبه وهو يصغي للعريس الهارب يروي قصة حياته، بأسلوب مرح يقف عند أدق التفاصيل! أبدى حمد عدة إشارات على ضيق وقته، بل طلب من حسين مرتين أن يدخل في الموضوع بشكل مباشر، لكن حسين كان يقول له "جاييك بالكلام يا زميل" ويتابع السرد بنفس الأسلوب البسيط الآسر.

عندما انتهى حسين من سرد قصة يتمه وهروبه،أحس حمد بأنه

موزع بين شعورين قويين متناقضين؛ نصفه المتمدن يود أن ينفجر غضباً في وجه حسين ويطرده من الغرفة لأنه فوَّت عليه موعداً هاماً! أما نصفه الريفي فكان يود أن يعانق حسين كصديق، لأنه منذ موت رفيق طفولته سليم لم يسمع إنساناً يكلمه بهذا الصدق والعفوية مثل حسين. شبك حمد يديه على بطنه، كما لو أنه يعقد صلحاً بين نصفيه، ثم قال باقتضاب، وعلى وجهه ابتسامة غريبة:

"يا أخي ما كان ضروري تحكي لي قصة حياتك حتى تطلب مني لاقي لك شغل".

لوى حسين عنقه بحرج "لو ما حكيت لك قصة حياتي، ممكن ما تعرفني ولا تقدِّر ظروفي، وإذا ما قدَّرت ظروفي، ممكن ما تفكر بمساعدتي!"

صارح حمد العريس الهارب إنهم بحاجة إلى محاسب في بوفيه الجامعة المركزي، وأنه من الممكن أن يرشحه لذلك العمل، لكنه بحاجة إلى شخص معروف يكفله لأنه سيؤتمن على دفاتر البونات وعلى دخل البوفيه من المال طوال بضعة أيام. لوى حسين رأسه بانكسار: "يسوى الكفيل يكون عريف بالجيش؟". انفجر حمد بالضحك رغماً عنه: "لا، يا فهيم! لازم الكفيل يكون شخص معروف، ومن داخل الجامعة!". عندها نظر حسين في عيني حمد، وقال بلهجة مؤثرة: "أنت شخص معروف، ومن داخل الجامعة! خذني بضمانتك!"

فوجئ حمد بجرأة حسين وبساطته. كاد أن يصرخ في

وجهه:"كيف آخذك بضمانتي، يا أهبل؟ وأنا لم أرك في حياتي قبل اليوم؟" لكنه عندما رأى النزاهة تشع من عينيه الوديعتين،الذكيتين، فتح يديه تعبيراً عن الدهشة، ثم قال باستطراف، بعد أن تأمل حسين للحظات:"تكرم عينك! رح آخذك بضمانتي" .

لم يخف العريف صاحب الغرفة فرحته عندما علم أن حسين قد وجد عملاً، قال له،على طريقة أبناء الريف في تسميع الكلام: "معناها ما بقي عليك إلا تلاقي مطرح السكن، لأني نويت جيب المرا من عند أهلها، يا أخي صدق من قال: العيشة بلا مرا مرمرة" .

طلب حسين من حمد أن يسمح له بالنوم في البوفيه، لأن العريف ابن قريته بدأ يضيق بضيافته، أفهمه حمد أن النوم في البوفيه ممنوع، لكنه وعده أن يؤمن له سكناً في المدينة الجامعية بأسرع وقت.

بعد أسبوعين أسكنوه مع طالب آخر، في السنة الثالثة من قسم اللغة الإنجليزية،يدعى عباس الضّاوي وهو من منشأ ريفي فقير مثله، لكنه تمكن عن طريق ضابط كبير،يمت إليه بقرابة بعيدة،لجهة الأم، أن يعمل مساء كمترجم في شركة استيراد وتصدير يملكها أحد أصحاب النفوذ .

منذ الساعات الأولى لتعارفهما أدرك حسين أن عباس يحب القنفشة والقنزعة، فعاد للاختباء وراء ابتسامته الطيبة التي تمتزج فيها السذاجة بالهبل، في إشارة خفية منه لعباس، بأنه مناسب لممارسة الزعامة عليه. انتشى عباس وهو يرى مدى انبهار حسين

بنجاحاته، فراح يحدثه عن نفسه وعمله باستفاضة. تحدث عباس عن الخبرات الهائلة التي كسبها من العمل في ترجمة مراسلات الشركة، لأن اللغة التي يعلمونهم إياها في الجامعة لا علاقة لها بالحياة، تقريباً. لكنه اشتكى من كثرة المصطلحات الجديدة التي ترد في تلك المراسلات، وكمثال على ذلك عرض على حسين رسالة جابها معه من الشركة كي يستشير أستاذه بمصطلح استعصت عليه ترجمته لعدم وجوده في القواميس.

كان حسين موهوباً في التقاط المفردات، لدرجة أن أستاذ اللغة الإنجليزية في الحادي عشر ثانوي، اعترف أمام الطلاب بأنه (فلتة)! وتوقع أن يكون له مستقبل إذا ما تابع الدراسة في هذا المجال! والحق أن حسين يمتاز بحافظة مدهشة، إذ يكفي أن يستخرج معنى الكلمة مرة واحدة من القاموس ويلفظها بضعة مرات متوالية كي ترسخ في ذاكرته بشكل نهائي!

تمعن حسين في الرسالة. وقف عند المصطلح الذي رسم عباس تحته خطاً بقلم رصاص. حكَّ رأسه، ثم قال بمزيج من السذاجة والهبل: "عدم المؤاخذة أستاذ عباس، أكيد أنت أعرف مني بألف مرة! لكن،يعني، بظن، الله العليم، يتهيأ لي، من خلال السياق، إنه فيه حرف (y) ساقط بالطباعة!"

نظر عباس إلى حسين باحتقار شديد، نتش ورقة الرسالة من يده باستخفاف: "لو كان فيها خطأ مطبعي، كنت شفته! مفكر إني أعمى؟" قال حسين بمسكنة: "أستغفر الله! بس ممكن بالك

مشغول...تفضل تأكد بنفسك! إذا ضفنا حرف (y) بالفراغ، ساعتها رح يصير المعنى واضح مثل عين الشمس".

نظر عباس إلى حسين مغمغماً باستهزاء: "يخزي العين عنك! لا تكون الطفل المعجزة! وأنا ما آخذ بالي؟" ابتسم حسين بتسامح: "يا أستاذ عباس الجرة الكبيرة، تسندها حصوة صغيرة! فخذ لك نظرة، وبعدها احك"!

ضحك عباس وهو يتملى الرسالة، وفجأة شهق وغمغم منكمشاً: "إي والله، معك حق! مليح انك نبهتني!".

هكذا بدأ التعاون بين الاثنين في مجال الترجمة اعتباراً من الليلة الأولى. كان عباس يحضر مراسلات الشركة معه إلى المدينة الجامعية، حيث يساعده حسين في استخراج معاني الكلمات من القاموس، وبعد بضعة أشهر لم يعد حسين بحاجة لأن يفتح القاموس، إلا نادراً، لأنه حفظ كل المفردات والمصطلحات التي تستخدم في ذلك النوع من المكاتبات التجارية.

في السنة التالية حرص عباس على أن يبقى ساكناً مع حسين في نفس الغرفة، واقترح عليه أن يترك العمل في البوفيه المركزي لمساعدته في ترجمة مراسلات الشركة، لقاء مبلغ مقطوع يعادل نصف راتبه كي يتفرغ هو للدراسة"هذه سنة تخرج، والتخرج لازم له هز أكتاف!"

وافق حسين على العرض رغم علمه بأن المبلغ يعادل ربع راتب

عباس فقط، لا لأنه يحب الترجمة فقط، بل لأن هذا العمل يحرره من الدوام الطويل في البوفيه، ويمكنه من متابعة المحاضرات في مواعيدها، غير أن ما زاد من حماسه هو وعد عباس له بأن يرشحه للعمل في الشركة عند أقرب فرصة.

في البداية كان عباس حريصاً أن لا يعرف حسين أين يقع مقر الشركة، لكن مخاوفه بدأت تتلاشى بعد أن تأكد له أن حسين طيب لدرجة الهبل. حتى أنه صار يكلفه بإيصال المواد المترجمة إلى الشركة وإحضار المواد الجديدة المطلوب ترجمتها! وشيئاً فشيئاً تغلغل حسين في حياة الشركة كالنعاس متمسكاً بهيأة الشاب الذكي الطيب الخدوم لدرجة الهبل.

استأجر عباس شقة من غرفتين، في دمَّر، وأسكن حسين معه، وقد تطورت ثقة عباس به لدرجة أنه بات يسمح له بإحضار النصوص وترجمتها وإعادتها إلى الشركة دون أن يراجعها أو يطلع عليها. وقد كان الجميع يظنون أن حسين مجرد مرسال ابن حلال، بما في ذلك المدير الإداري الذي يدعم عباس.

ظهيرة يوم خميس، جاء حسين إلى الشركة لتسليم بعض المواد المترجمة، فقال له الحاجب بذعر إن المدير الإداري قد قلب الدنيا على عباس. وأنه أرسل سيارتين للبحث عنه. تهللت أسارير المدير الإداري عندما رأى حسين. وطلب منه أن يبلغ عباس بالحضور إلى الشركة خلال ساعة كي يترجم الاجتماع الذي سيعقد بين سيادة المدير العام ووفد ياباني مهم.

شحب المدير كالأموات عندما علم أن عباس قد سافر إلى قريته. زمجر بغضب: "سبق وقلت لعباس بطيخ إنه ما يتحرك لأي مطرح دون ما يخبرني! الحق علينا لأنا سلمناه سيارة! أكيد، تلاقيه، راح يشوف حاله قدام أهله بالسيارة الجديدة!"

لوى عباس عنقه بمسكنة، قال محاولاً تبرير سلوك زميله: "عباس فكَّر إنه اليوم خميس وبكرة عطلة..."

انفجر المدير الإداري صارخاً، ملوحاً بيديه في وجه حسين كما لو أنه هو المذنب: "فكَّر! عباس التافه ما ممكن يفكر لأنه حيوان! بالله العظيم، لولا احترامي لشخص وصّى فيه، كنت سرحته! العمى في عيونه..العمى!"

تهالك على كرسيه بقنوط. رفع سماعة الهاتف، ركَّب رقماً ثم قال بلهجة آمرة: "أبو فاضل، لازم تلاقي لي مترجم إنجليزي خلال ساعة، ولو من تحت الأرض"!

أغلق المدير الهاتف وأطلق نفخة طويلة! لوى حسين عنقه بمسكنة مدركاً أن الفرصة التي طالما انتظرها قد حانت: "سيدنا، إذا ما لاقى أبو فاضل حدا ممكن أنا ترجم الاجتماع".

نظر المدير الإداري إلى حسين غير مصدق. قال بتهكم وتشكك: "تقدر؟ على علمي أنت بعدك بالسنة الثانية"

هز حسين رأسه منكمشاً،قال بثقة مفاجئة: "جرّبني! صحيح، بعدي بالسنة الثانية، لكن لغتي جيدة." نظر المدير إلى حسين

بارتياب كما لو أنه يراه للمرة الأولى: "سبق وسمعت إنه فيه تعاون بينك وبين عباس في مجال البحث بالقواميس، لكن الترجمة المباشرة أصعب بكثير! يا ترى سبق وجربت الترجمة المباشرة؟" انكمش حسين مجدداً، هز رأسه بالنفي. قال المدير بنزق: "المعلم خلقه ضيق، إذا ما عرفت تترجم ممكن يرميك من الشباك"!

نظر حسين في عيني المدير الإداري وقال برصانة مفاجئة: "جربني". أخرج المدير رسالة وصلت قبل قليل فترجمها حسين بسلاسة كما لو أنه يقرأ في كتاب.

مرَّ الاجتماع بسلام! واستمرت الأمور كما كانت عليه. وذات مساء رن هاتف الجيران الذي لا تستخدمه الشركة إلا للطوارئ، كان عامل المقسم مضطرباً، وقد انتقل الاضطراب إلى حسين عندما علم أن المعلم سيكلمه بنفسه، جاءه الصوت الأجش المهيب، بارداً كحد السيف:"تعال إلى الشركة فوراً!"

كان حسين يعلم أن المقصود بالكلام هو عباس، وقد شاءت الصدفة أن يكون عباس مسافراً في القرية، كما شاءت الصدفة أن لا يجد حسين سيارة تكسي! وعندما وصل إلى الشركة بعد ثلثي الساعة استقبله المعلم مقطباً، قال حسين مبرراً تأخره بحرج شديد: "العفو منكم سيدنا! ما لاقيت سيارة!"

بعد وداع الوفد أشار المعلم لحسين بأن يبقى. قال له بانزعاج وعدم ثقة:

"لا تقل لي، سيارتك، تعطلت!"

"الحقيقة،سيدنا، أنا، ما عندي سيارة" أجاب حسين وهو يفرك يديه بحرج!

"عجيب! على حد علمي حتى الموظفين المؤقتين في الشركة، سلمناهم سيارات!"

"العفو سيدنا، أنا لا دائم ولا مؤقت" أجاب حسين وهو ينظر إلى الأرض بخجل.

ذهل المعلم عندما اكتشف أن حسين غير مخصص بسيارة ولا يتقاضى من الشركة أي تعويض ولا يعمل في فيها أصلاً، بل يساعد زميله! استفسر المعلم من المدير الإداري عن مترجم الشركة فأعلمه أنه مسافر عند أهله".

قال المعلم بلهجة حاسمة: "بلغوه يسلم السيارة ويبقى عند أهله، وعينوا حسين مطرحه!"

لم يخطر ببال أحد أن حسين المسكين الذي يأكل القط عشاءه، سوف يتغير بهذا الشكل! فخلال خمسة أشهر لم يعد دوره يقتصر على ترجمة العقود وحسب، بل صار يشارك المدير الإداري في صياغتها! إذ يكفي أن تمر عليه المسألة مرة واحدة حتى يحفظها بكل تفاصيلها. وهكذا ظل دور حسين ينمو باستمرار، حتى ضاق الجميع به ذرعاً.

حقق حسين قفزته الكبرى، أثناء غياب المدير الإداري في مهمة خارجية، وتكليفه بتسيير الأمور بالوكالة. إذ حرر له المهندس المفاوض باسم شركة الإنشاءات الإيطالية شيكاً بمبلغ مليون دولار شريطة أن ترسو المناقصة على شركته، وبما أن العرض الإيطالي كان الأفضل والأرخص، فقد رست المناقصة بشكل طبيعي على شركة الإنشاءات، فما كان من حسين إلا أن شرح المسألة لـ(المعلم) وقدم له الشيك، لأنه يعتبره من حق الشركة!

حدّق المعلم في عيني حسين طويلاً، كما لو أنه يريد أن يقرأ ضميره! قال بمكر وهو يقلب الشيك بين يديه: "أكيد أبو عصام وجماعته كشفوك، فردت تطالع ببياض الوجه؟" نظر حسين إلى عيني المعلم وقال كما لو أنه يوشك أن ينفجر بالبكاء: "الله يسامحك، يا معلمي! وحياتك على الغالي ما حدا على وجه الأرض دري بهذا الشيك إلا كاتبه وسيادتك وأنا".

تأثر المعلم كثيراً بموقف حسين لكنه ظل يتساءل في قرارة نفسه: "هل هو نصاب من العيار الثقيل؟ أم شخص بسيط يتمتع بذكاء فطري؟"

بعد أسبوع من التحقيقات والاستفسارات الدقيقة تأكد المعلم من صدق حسين فاستدعاه إلى مكتبه. سأله عما إذا كان يعلم أن هذا الشيك يعادل راتبه لأكثر من أربعمائة عام؟ هز حسين رأسه بالإيجاب. سأله المعلم أن يوضح له موقفه العجيب، قال ببساطة مؤثرة "يا سيدنا، أمين وخوان ما يصير!" نظر المعلم إلى حسين باندهاش وإعجاب قال: "يا بني آدم، قالوا لي إنك يتيم، على

الحديدة! وهذا مليون دولار. تعرف إيش يعني مليون دولار؟" هز حسين رأسه قال بصدق مؤثر: "معك حق، يا سيدنا،وما ألومك لو فكرت إني مجنون أو أَخْوَتْ! بس، الحقيقة، أنا تصرفت وفق قناعاتي...".

اندفع المعلم بكليته نحو حسين متسائلاً بفضول شديد لا يخلو من بعض التهكم: "قناعات! أي قناعات ممكن تخلي واحد عاقل يرمي مليون دولار؟ هات، احك لي! صار عندي فضول أتعرف على ها القناعات!"

رمق حسين المعلم بنظرة خاطفة ثم أخذ يتكلم بصدق مؤثر: "قبل كل شيء، أنا يا سيدنا ما رميت المليون دولار، إنما رجَّعت المال لصاحبه..."

قاطعه المعلم قائلاً بشيء من نفاذ الصبر: "بودي تعطيني سبب مقنع"!

ابتسم حسين للمعلم وقال بجدية يخالطها شيء من المرح: "ممكن يا سيدنا اختلق لك أكثر من سبب مقنع... ممكن قول مثلاً، إني مؤمن بقول سيدنا المسيح: "ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم وخسر نفسه؟" ممكن قول إنه أمي خزنا السلمان كانت تقول: يا ابني يا حسين، لا تذل حالك للمال! المال ما يجيب رجال، الرجال يجيبون المال"!

ابتسم المعلم: "ما بودي تختلق لي أسباب، حتى ولو كانت مقنعة، بودي أعرف السبب الحقيقي".

نظر حسين في عيني المعلم طويلاً، وهذا شيء لم يكن يجرؤ عليه أي شخص في الشركة، قال مبتسماً بمودة كما لو أنه يكلم صديقاً له: "في صغرنا،يا سيدي، كنا نقول: إذا كان الكذب ينجّي، فالصدق أنجى وأنجى."

قال المعلم بنزق كما لو أنه قد انزعج من لهجة حسين الخالية من التكلف: "وأنا ما بودي إلا الصدق، احك! خلصني! يا ترى ممكن تكون شيخ، ما يأكل حرام ؟"

انكمش حسين، قال وهو يختلس النظر إلى المعلم كتلميذ يقدم امتحاناً شفهياً: "الصراحة، يا سيدنا، القصة ما لها علاقة بالحلال والحرام! أنا أخذت باعتباري احتمال انكشاف القصة، وما ممكن يجيبه لي من وجع رأس، لكن بصراحة الله، كل ها التفاصيل ما هي السبب الحقيقي، لأنه احتمال تكشفوني ضعيف ومستبعد."

صرخ المعلم بنفاذ صبر مستفسراً من حسين عن السبب الحقيقي. نظر حسين إلى المعلم كما ينظر الكلب المخلص إلى صاحبه، ثم قال بلهجة تتضح بالصدق: "السبب الحقيقي، يا سيدنا، إني قررت رجع المليون حتى أكسب ثقتك."

بهت المعلم، ابتسم مغمغماً بمرح:"ثقتي! ثقتي بالنسبة لك تسوى مليون دولار!"

هز حسين رأسه، تابع المعلم متهكماً: "لكن ثقتي لا تصرف في أي مكان!"

غمغم حسين بإخلاص شديد: "صحيح يا سيدي ثقتك ما هي عملة، لكنها رصيد كبير، لأي شخص! وأنا إذا كسبت ثقتك، ممكن أكسب أي شي أريده"!

ارتسمت على وجه المعلم ابتسامة عريضة. نظر إلى حسين باستطراف، ثم فتح الدرج العلوي من مكتبه، أخرج مغلفاً أبيض أدرك حسين من فوره أنه مغلف الشيك، مد المعلم يده بالشيك لحسين قائلاً بتأثر: "خذه، حلال عليك"!

لم يأخذ حسين الشيك بل تلقف يد المعلم، جذبها إليه وانهال عليها تقبيلاً وهو يبكي. نهض المعلم من خلف مكتبه، ربت على كتف حسين، طيَّب خاطره ببضع كلمات، ثم دس له الشيك في جيبه الداخلي قائلاً بتأثر: "حلال عليك الشيك!... وثقتي فوقه!"

هكذا صار حسين مليونيراً في لحظات!



في البداية لم يكن حسين يضن بالخدمات الصغيرة على أبناء بلده؛ فقد وظف أبو حمد آذناً في مدرسة القرية، كما ساعد حسنة ابنة خالته هدلة في دخول دار المعلمين، وحصل على استثناء لعباس لتعيينه في معمل الإسمنت، لكنه اكتشف بسرعة أن المضي في هذا الطريق من شأنه أن يحوله إلى معقب معاملات، فصار يكتفي بهز الرأس ودق الصدر، حتى يئس الناس منه، بينما كان هو يصعد السلم بسرعة حتى اختفى تماماً عن الأنظار.

كان أبناء أم العناقيد يشعرون بالسعادة لنجاحات ابن بلدهم، وعندما نقل مركز عمله إلى باريس فرحوا له. قال سلمان محرز يومها متهكماً: "اليوم صارت باريز مربط خيلنا عن صحيح".

لم يعرفوه عندما جاء إلى القرية للمرة الأولى، بسيارته الأمريكية السوداء الطويلة، التي لا يرى ما في داخلها. لكنه ما أن عرفهم بنفسه حتى بدؤوا يتجاذبونه، الغانم منهم يريد أن يدعوه إلى بيته. ولإرضاء الجميع قرر أن يذهب إلى بيت المختار. كان عمه قد مات وكانت عروسه حسنا العمشا قد تزوجت حميدان الملقب بالدب المشهور بثقل يده وضخامة جسده، وأنجبت منه أحد عشر صبياً جميعهم يشبهونه من حيث القوة، ويشبهونها من حيث الدمامة! لم تكن العمشا تتحرك إلا وأولادها جميعاً معها، ولهذا لقبها أحدهم قائد الجيوش، وقد غلب عليها هذا اللقب حتى لم يعد أحد يذكر اسمها الحقيقي أو لقبها السابق. فتح حسين فمه دهشاً، عندما رأى ابنة عمه العمشا تسير محاطة بإحدى عشرة نسخة عملاقة مذكرة منها غمغم ذاهلاً: "يخزي العين! كلهم لك؟" قالت بتواضع وغبطة: "لله، ما لنا شي!" ثم أردفت متباهية بخصوبتها: "مُنى عيني كان الله يرزقني بنت، ترعى كبرتي وتستر شيبتي، لو ما أبو الأولاد اعطاك عمره".

أيقظت عودة حسين قرية أم العناقيد من سباتها المزمن، وضخت في شرايينها دماء جديدة. ومع أنه لم يبت في القرية، ولم يمض فيها إلا ساعات معدودة،فقد استطاع منذ زيارته الأولى أن ينهي زمن التثاؤب، والنميمة، ولعب المنقلة، ويدخل أم العناقيد في إيقاع جديد!

في زيارته الثانية إلى القرية جاء مع سيدة أجنبية شقراء، قيل إنها زوجته التي لا تنجب أولاداً. يتبعهما، في سيارة أخرى، يحيى سلوم مدير مكتبه في الشام، الذي كان ينقل أخباره أثناء غيابه، يرافقه مهندسان الأول فرنسي والثاني سوري.

لم يتردد في تحديد البقعة المطلوبة، وطلب من المختار أن يخطر أصحاب الأرض أنه يرغب مقابلة كل منهم على انفراد. وقد خرج الجميع من الاجتماع معه راضين وكل منهم يحمل في عبه بضع كدسات من الأوراق المالية.

بعد تسوير الأرض وصلت إلى المنطقة آلات ضخمة لم يسبق لأحد من الأهالي أن رأى مثيلاً لها، تنجز العمل الذي يحتاج لبضعة أشهر خلال بضعة أيام. كان الأستاذ حسين الذي يناديه مدير مكتبه حسين بك، يطل لساعة أو ساعتين كل بضعة أشهر مع المهندس الفرنسي ليقوم بتفتيش ما أنجزته الورشات، كان يتفحص العمل مقطباً، ولم يكن يتردد في هدم وإتلاف أي شيء لا يبدي المهندس الفرنسي رضاه عنه. حتى أن سيراميك المسبح تم قبعه مرتين!

مع انتهاء أعمال الحفر وصب البيتون، لم يعد أحد من أهالي أم العناقيد يسمح له بدخول القصر، ولم ير أحد أثاثه لأنه كان يصل في حاويات ضخمة تدخلها الشاحنات إلى الطابق السفلي فكثرت الإشاعات عنه، هذا يقول إن حنفياته من ذهب، وذاك يقول إن ثرياته من الأحجار الكريمة، وجدرانه مغطاة بالتحف العجائبية وصور النساء الفاتنات.

كان حسين وضيوفه البارزين قد انتهوا من تناول طعام الغداء الذي وصل ساخناً من مطعم مكسيم في باريس، كان حسين يدخن سيجار هافانا ويحدث ضيوفه عن فن التدليك الجنسي في تايوان وبقية بلدان الشرق الأقصى حيث يمكن للرجل أن يعرف المعنى الدقيق للمتعة الحقيقية.

دخل مدير مكتبه يحيى سلوم، وأشار له بحركة من رأسه، فتبعه برزانة إلى خارج الصالون المزدحم بالتحف، رمقه بنظرة مستفهمة، قال يحيى وهو يفرك يديه: "سيدنا أهالي الضيعة مجتمعين عند باب القصر" تساءل حسين باندهاش عما يريدون فشرح له يحيى أنهم يريدون أن تتوقف الحفارة عن الحفر فوراً، لأن مية العين تعكرت، ومعنى هذا أن الحفر وصل لأصل النبع". نفخ حسين دخان السيجار في وجه يحيي وقال ببرود واقتضاب: "قل لهم: البئر مرخص نظامي! والحفارة ما ممكن تقف قبل طلوع المي".

عندما كرر يحيى عبارة حسين بدت علائم الذهول على وجوه الجميع. صاح سلمان المحرز: "لا، ما معقول! الأستاذ حسين الفهمان، يقول ها الكلام الفاضي! ما معقول حتى يعبي المسبح، يموتنا من العطش! لا! الأستاذ حسين ما بيعملها!" عندها نط فهد بو وطفه قائلاً بنزق وحدة: "لا سيدي يعملها ويعمل أبوها، طول عمره خيره لغيرنا، وخراه علينا!"

تداخلت الأصوات وعلا اللغط فانسحب يحيى إلى داخل القصر كمن أدى مهمته. وقف الرجال محبطين حائرين وفي تلك اللحظة

اقترب ولد يعدو من جهة العين وهو يحمل زجاجة شفافة مليئة بماء له لون الوحل! صاح سلمان المحرز نحو الولد مستفسراً عما يحمله، قال الولد عبر اللهاث: "مية العين صارت مثل الوحل"! صرخ فهد بو وطفه وهو يغلي: "دقت ساعة الرجال إذا بقي فينا رجال!"

اندفع فهد يعدو نحو الحفارة فتبعه الجميع. أمر فهد عامل الحفارة أن يوقفها، فلم ينصع للأمر، فما كان من فهد إلا أن هجم نحوه ملوحاً بعصاه، فهرب عامل الحفر ومساعديه مبتعدين. جبل شابان كيسين من الإسمنت وصبوهما في البئر، ثم قام فهد وعدد من الشباب بدحرجة برميل المازوت، وسكب محتوياته قرب الحفارة، وأضرموا فيها النيران، فتحولت إلى شعلة ترى من مسافة مئات الكيلو مترات!

جاءت الشرطة، ثم جاءت سيارة من كتائب حفظ النظام، وتم جمع رجال أم العناقيد الواحد تلو الآخر وزج بهم في سجن الناحية الذي ضاق بهم.

جاء الأستاذ حسين لياقي نظرة على غرمائه المخربين المحشورين في النظارة، قال: "أنا حاولت اعملكم عالم، بس مع الأسف الإنسان لما يتعود إنه ينداس بالبسطار، من الصعب بعدها إنه يرجع ويصير مثل البشر. الحفارة اللي حرقتوها ثمنها عشرات ملايين، وإذا ما دفعتم ثمنها من مالكم لا بد تدفعوا ثمنها من أعماركم!"

عندها قال سلمان محرز بهدوء ورصانة: "اسمح لي بكلمة يا

حسين بك! يا ترى بعدك تذكرني؟ أنا سلمان محرز. تذكر، بيوم من الأيام، لما كنت طالب بالثالث الإعدادي، طردوك من المدرسة، وقالوا لك ما ممكن ترجع قبل ما يحضر ولي أمرك ؟ تذكر؟"

بدت علائم الاستغراب الشديد على وجه حسين. هز رأسه مغمغماً بغموض: "والمعنى؟" تابع سلمان محرز بنفس اللهجة: "المعنى، يومها صادفتني بكراج الضيعة، وترجيتني حار الرجاء حتى روح معك للمدرسة وقول للمدير إني ولي أمرك! يومها غلطت؛ بدل ما أقول للمدير إني عمك قلت له إني أبوك، لكن الله ستر، ومرت القصة على خير"

نظر حسين إلى سلمان محرز وقال بمزيج من التهكم والاستخفاف: "فهمنا! معقول تفكر إني سامحك لأنك تظاهرت إنك أبي لمدة خمس دقائق ذات يوم ؟"

ابتسم سلمان محرز وقال بصوته الرجولي المؤثر: "لا، صدقني ما غرضي من الحكي، إنك تسامحني، أو تطلق سراحي!"

قال حسين بضجر ونزق: "خلصني! انطق شو غرضك؟"

عندها نظر سلمان محرز إلى حسين كما لو أنه ذرة من الغبار، ثم قال باحتقار شديد: "غرضي خبرك إني ممنون من السما لأنك ما كنت ابني بالفعل."

دمشق شباط ٢٠٠١

فهرس

الكتب الصادرة

اسم الكتاب	المؤلف ـــ المترجم
١ ـ الروضة الغناء في دمشق الفيحاء	نعمان أفندي قساطلي
٢ ـ دستوفسكي / نقد ودراسة	استيفان زفايغ / فريد آنطونيوس
٣ـ من الأندلس إلى أمريكا/الموشحات الأندلسية في الشعر الغنائي الغربي	د ـ عبد النبي اصطيف
٤ ـ جمال الدين الأفغاني ـ ذكريات وأحاديث	عبد القادر المغربي
٥ ـ في ظلال الأندلس ـ محاضرات	سلمى الحفار الكزبري
٦ ـ من الإسكندرونه إلى الإسكندرية	وليد إخلاصي
٧ ـ طرائق تعليم اللغة للأطفال	د ـمحمود آحمد السيد
٨ ـ دمشق التي عايشتها	يوسف سامي اليوسف
٩ ـ دمشق في عيون الشعر العربي الحديث	جان آلكسان

١٠ ـ من أفلاطون إلى ابن سينا	جميل صليبا
١١ ـ ضد إسرائيل	بيير ديمرون / حسيب كيالي
١٢ـ الشعر والتصوف	وفيق سليطين
١٣ ـ ابن عنين الأنصاري	د . أحمد دهمان
١٤ ـ مختارات شعرية	أمل جراح
١٥ ـ القمة وقضايا الأمة	د . رياض نعسان آغا
١٦ ـ عروبة بيت المقدس	د . اسحق موسى الحسيني
١٧ ـ لوركا ـ مختارات شعرية	ترجمة: مروان حداد
١٨ ـ القدس ذاكرة فنية عربية	محمد منصور
١٩ ـ وهج روح	ريم عبد الغني
٢٠ ـ بين السياسة والفنون	د . رياض نعسان آغا

٢١ ـ حول فراش الأمير	علي حسني نجار
٢٢ ـ أ بو القاسم الشابي	د. سحر عمران
٢٣ ـ كلمات مسافرة	اعتدال رافع
٢٤ ـ أعلام وأعمال	د. عبد الكريم الأشتر
٢٥ ـ البيئة والإنسان تفاضل أم تكامل	كامل عباس
٢٦ ـ بابلو نيرودا عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة	ترجمة: مروان حداد
٢٧ ـ موشور الفصحى الجميل	نصر الدين البحرة
٢٨ ـ نقوش على العمود	عبد الكريم الناعم